أخلاقيات الحرب والسلم في السيرة النبوية

Akhlaqiyatulharb Wassilm Fissirah Annababiyah

আখলাকিয়াতুল হারব ওয়াসসিলম ফিসসীরাহ আননাবাবিয়্যাহ

(The Moralities of War & Peace in the life of Muhammad S)

أطروحة

لنيل شهادة "الماجستير في الفلسفة"

قسم العربية بجامعة داكا

الباحث

محمد شهادات حسين

رقم التسجيل 92/2013-2014

تحت إشراف:

د. محمد عبد القادر

الأستاذ بقسم العربية، جامعة داكا

داكا– بنغلاديش

شهادة الاعتراف

أعترف بأني أكملت أطروحتي المعنونة "أخلاقيات الحرب والسلم في السيرة النبوية" تحت إشراف فضيلة الأستاذ/ الدكتور محمد عبد القادر المحترم، الأستاذ في قسم العربية بجامعة داكا، بنغلاديش.

وأعترف أن سائر فصول الأطروحة من ثمرات جهودي المتوضعة، كما أعترف أنه لم يسبق إصدار أي فصل منها ولا أي بحث منها في الجرائد والمجلات ولم يسبق تقديمها إلى أي معهد علمي لنيل أي شهادة إكاديمية، هذا، وشكرا.

الباحث/

محمد شهادات حسين

رقم التسجيل 92/2013-2014

TO WHOM IT MAY CONCERN

This is to certify that Muhammad Shahadat Hussain, a research Scholar of the Depertment of Arabic, University of Dhaka, completed his M.Phil thesis entitled

"أخلاقيات الحرب والسلم في السيرة النبوية"

Akhlaqiyatulharb wassilm fisseerah Annababiyah

(আখলাকিয়াতুল হারব ওয়াসসিলম ফিসসীরাহ আননাবাবিয়্যাহ)

(The Moralities of war & Peace in the life of Muhammad S)

Is an original work. I have gone through the Manuscript of the Thesis and recommended it for submission to the Dhaka University for the Award of the M.Phil Degree in Arabic.

Professor D.MD Abdul Kadir

Department of Arabic

University of Dhaka

Dhaka, Bangladesh

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

1- شهادة الاعتراف.....2

2- كلمة الأستاذ المشرف..... 3

3- فهرس المحتويات 4

4- كلمة شكر و وفاء.....8

5- تقديم.....9

6- ملخص البحث.....10

الباب الأول

الفصل الأول

7- من هو محمد صلى الله عليه وسلم 17

8- الخلق لغة.....24

9- الخلق اصطلاحا.....25

الفصل الثاني

10- وإنك لعلى خلق عظيم.....26

11- أخلاقه وشمائله صلى الله عليه وسلم 27

12- العفو الكريم الشامل.....32

13- لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.....33

الباب الثاني

الفصل الأول

14- الحرب والمحاربة لغة.....36
15- الحرب والمحاربة اصطلاحا.....37
16- السلم لغة.....38
17- السلم اصطلاحا.....39

الفصل الثاني

18- الحرب عند العرب قبل الاسلام.....40
19- الحرب بين العرب والفرس.....41
20- حرب البسوس.....40
21- حرب داحس والغبراء.....42

الفصل الثالث

22- الحرب في الجاهلية وفي الإسلام.....45
23- نظرية الحرب في الإسلام.....46
24- الحرب واللواء الصيني سانتجو.....55
25- أحكام وقواعد الحرب في الإسلام.....74
26- الفضيلة والسماحة في حروبه ﷺ 83
27- الرسول القائد ﷺ 102
28- أشداء على الكفار رحماء بينهم.....103
29- الرسول ينشئ الجيل الإسلامي الجديد.....104

الباب الثالث

الفصل الأول

30- أخلاق الرسول ﷺ مع أصحابه..... 109

31- مع حاطب بن أبي بلتعة رضـ.....109

32- و مع الثلاثة الذين خلفوا.....109

33- أخلاقه ﷺ في غزوة بدر الكبرى..... 111

34- أخلاقه ﷺ في غزوة أحد..... 113

35- أخلاقه ﷺ في غزوة الأحزاب..... 114

36- أخلاقه ﷺ في غزوة بني قريظة..... 115

الفصل الثاني

37- المقارنة بين الأخلاق النبوية وأخلاق زعماء العالم.....117

38- العفو عن الأعداء الألداء.....121

39- أبو سفيان. 121

40- هند بنت عتبة.....121

41- وحشي.....122

42- عكرمة بن أبي جهل.....122

43- هبار بن الأسود.....123

44- عمير بن وهب.....123

45- صفوان بن أمية.....123

الباب الرابع

الفصل الأول

46- المقارنة بين غزوات الرسول عليه السلام والحروب العالمية.....125

47- تدابيره السياسية والدبلوماسية والحربية عليه السلام.....126

48- وأمرهم شورى بينهم..... 134

الفصل الثاني

49- هيروشيما و ناغاساكي والقنابل الذرية.....136

50- نظرية الحرب لدى أعداء الإسلام.....137

51- نداء إلى الأمة الإسلامية.....138

الخاتمة

52- الخاتمة.....142

53-المراجع.....143

كلمة شكر و وفاء

إننا نشكرالله أولا ثم نشكر فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر المحترم ثانيا على التكرم بالموافقة على تقديم هذه الأطروحة فإنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله. فتقبل الله تعالى جهوده الطيبة وحفظه الله تعالى و رعاه وأدامه الله تعالى ذخرا للإسلام والمسلمين. كما نشكر جميع أساتذتنا الكرام بقسم العربية بجامعة داكا لموافقتهم على أطروحتي ومساعداتهم الكريمة بما فيهم من الأستاذ الدكتور محمد يوسف والدكتور أ ج م قطب الإسلام نعماني والدكتور شهيد الإسلام و الأستاذ محمد نور عالم حفظهم الله تعالى ورعاهم كما نشكر جامعة داكا ولا سيما قسم العربية للجامعة لموافقتهم على أطروحتي و على حسن تعاونهم لي فأدامهم الله تعالى لخدمة الإسلام والمسلمين تجاه العالم كله.

وكذلك نشكر الأخ الفاضل/حبيب الرحمن منير الندوي الذي صحح لي الأطروحة بتمامها، فجزاه الله خيرا، و نشكر شريكة الحياة ورفيقة الهجرة من عاشت ولا تزال تعيش معي حلو الحياة ومرها، وهى "مسماة شمس النهار" المؤمنة الصابرة فجزاها الله تعالى خيرا. فلهم الشكر الجزيل ونتمنى لهم دوام التوفيق والسداد.

الباحث

محمد شهادات حسين

رقم التسجيل - 92/2013-2014

تقديم

إذا نرى أخلاقيات محمد ﷺ في حياته اليومية وفي كثير من مجالات حياته فردية كانت أو جماعية، سياسية كانت أو اقتصادية، محلية كانت أو دولية وحتى في مجال حياته الروحية والعبودية أو الدعوية فسنرى هناك أخلاقياته ﷺ النبيلة في مجال الحروب والغزوات ما لم يوجد لها نظير في العالم كله ولم أجد ما دمت حيا ولم تجد الدنيا ما دامت السموات والأرض، وقد خلق الله تعالى وجعله عبدا له من أحسن العباد خلقا في العالم، وجعله سيد الرسل والأنبياء كما جعله مظهرا كاملا للأخلاق النبيلة وقال تعالى في شأن حبيبه ﷺ وهو أصدق القائلين:"وإنك لعلى خلق عظيم"[1] وجعل في حياته ﷺ "أسوة حسنة" لمن كان يرجو الله واليوم الآخر فقال في شأنه ﷺ"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوالله و اليوم الأخر وذكرالله كثيرا"[2] وقال تعالى: فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.[3] فهذه الآيات الكريمة تدل على أخلاقه العظيمة وهى كالحجر الأساسي في أخلاقه ﷺ التي وصلت إلى قمة الجبال للأخلاق الحسنة كما أنه ﷺ مثال حي للناس جمعاء.

فإليكم أساتذتنا الكرام أقدم نبذة حول أخلاقه ﷺ في الحروب وتدابيره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدبلوماسية الناجحة التى هي من أهم جوانب سيرته الطيبة العطرة وذلك لتقديمها كبحث علمي إلى السلطة المختصة لجامعة داكا للحصول على شهادة "الماجستير في الفلسفة (M.Phill Degree)".

ومن أهم المقتبسات لغزوات الرسول ﷺ التي اقتبستها في هذا البحث من كتاب "السيرة النبوية"للشيخ الأستاذ أبي الحسن علي الندوي (رح) وكتاب"الرحيق المختوم" للشيخ الفقيد صفي الرحمن المباركفوري (رح) وكتاب" خاتم النبيين"للشيخ أبو زهرة (رح) ومن مقالة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي (بالتصرف) نشرت في مجلة "الوعي الإسلامي" الصادرة من وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت.

ونسئل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل المتواضع بقبول حسن وينبته نباتا حسنا ويجعله سببا للنجاة يوم الفزع الأكبر، كما نتمنى لجميع أفراد أسرة "جامعة داكا" دوام التوفيق والسداد.

محمد شهادات حسين

1.القرآن الكريم، سورة القلم-4

2.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-21

3.القرآن الكريم، سورة آل عمران-159

ملخص البحث

إنك لعلى صراط مستقيم إنك لعلى خلق عظيم

لقد من الله على المؤمنين إذ بعثك: رحمة للعالمين

الرسول القائد أنت ومعلم الأخلاق بعثت متمم مكارم الأخلاق
الرسول الهادي أنت وللقرآن حامل حقا وأنت الإنسان الكامل
ظهرت لنا أخلاقك النبيلة إذ عفوت عن عدوك اللدود
عكرمة وهند و وحشي إذ دخلوا في دين الله الودود
فصلوات الله وسلامه عليك وعلى آلك وأصحابك وأتباعك.

فمحمد ﷺ هو اسم للإنسان الكامل، اسم للشخصية العظيمة، اسم للصادق المصدوق، النبي الأمين المأمون، اسم لسيد رجال التاريخ، اسم للقائد الأعظم، اسم لصاحب الشريعة السماوية الأخيرة السمحة الغراء، تركنا على محجة بيضاء ليلها كنهارها، وهو اسم لعبد الله ورسوله، اسم للمحسن الأعظم على العالمين جمعاء، اسم للعدل والإنصاف، وهو اسم لرحمة للعالمين، اسم لمتمم مكارم الأخلاق، وهو اسم للحب والولاء، اسم للعطف والحنان والوفاء، اسم للأخلاق العظيمة الحميدة النبيلة الكريمة وهو اسم لبداية منطلق الدعوة الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها ونهاية دور الظلم والهمجية، بل ونهاية دور وأد البنات ووأد الإنساينة.

إن التاريخ الإنساني من بداية الركب الإنساني لم يشاهد ولم يعرف نبيا من الأنبياء ولا رسولا من المرسلين ولا عظيما من العظماء ولا قائدا من قادة العالم ولا زعيما من الزعماء ولا مصلحا من المصلحين استوعب في صفاته الذاتية والعقلية والنفسية والخلقية والدينية والروحية والاجتماعية، والإدارية والسياسية والدبلوماسية والعسكرية والتربوية ما استوعبته شخصية محمد ﷺ.

***

لقد رأينا أخلاقيات محمد ﷺ في حياته اليومية وفي كثير من مجالات حياته العائلية فقد رأينا كذلك أخلاقياته في مجال الحروب والغزوات مالم يوجد نظيرها في العالم كله.

فالحروب في نظر الإسلام، هى كعملية جراحية للجسد الإنساني حيث يوجد في العالم كثير من الإرهابيين والمفسدين والجبارين والمستعمرين من الملوك والسلاطين

الذين هم كل على ظهر الأرض وويل للنوع الإنساني وعذاب للأمم الصغيرة والضعيفة ومنبع الفساد والمرض في جسم المجتمع البشري يسري منه السم في أعصابه وعروقه فكان لا بد من عملية جراحية ولا بد من قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من الجسم السليم حتى يحيى المجتمع البشري وهذا هو سبب مشروعية القتال في الإسلام.

***

وقد ظهرت أخلاقه ﷺ النبيلة في مظهر كامل في حروبه وغزواته فأبدع للحروب أصولا وقوانين وهى كالتالية:

فمن أخلاقه ﷺ أنه لم يبدأ يقاتل الأعداء إلا وقد دعاهم أولا إلى الإسلام فيقول: أسلموا تسلموا! وكونوا عباد الله إخوانا.

فمن أخلاقه ﷺ أنه لم يكن زعيما جبارا متكبرا مثل زعماء العالم الجبابرة بل كان متواضعا خاضعا وخاشعا لله تعالى حيث وجدناه ليلة بدر الكبرى ساجدا لله وهو يبكى بكاء شديدا فيتضرع إلى الله رافعا يديه ويقول: " اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض".

فمن أخلاقه صلى الله عليه سلم أنه كان يمنع أصحابه من قتل النساء والأطفال، والشيوخ والضعفاء والمرضى والمزارعين والرهبان كما يمنع من التخريب والتحريق والهدم وقطع الأشجار المثمرة.

ومن أخلاقه ﷺ: أنه لم يكن يخطو أى خطوة حربية إلا باستشارة عامة الصحابة وقادتهم كما رأينا في غزوة بدر الكبرى وفي أحد وفي الأحزاب وفي صلح الحديبية حيث وافق ﷺ يوم بدر الكبرى على إشارة الخباب بن المنظر رضى الله عنه.

وفي الأحزاب وافق على إشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه لحفر الخندق، وفي صلح الحديبية إشتشار أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها امتثالا لأمر الله تعالى: وأمرهم شورى بينهم.

ومن أخلاقه ﷺ معاملاته مع أسارى بدر الكبرى السبعين فكان عفوه الكريم الشامل لأسارى بدر ما لم يشاهد العالم مثل هذا العفو على الأسارى وقد أوصى بأسارى خيرا حيث قال: "استوصوا بهم خيرا".

و القصة مشهورة ومنقطعة النظير في التاريخ الإسلامي.

ومن أهم ما شاهد العالم في أخلاقه ﷺ وهو عفوه الكريم الشامل عن أعدائه الألداء بعد فتح مكة حيث عفا عن عكرمة بن أبي جهل وهند بنت عتبة و وحشي وهبار بن الأسود وصفوان بن أمية (رض) الذين هم كانوا من أكبر أعداء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وللإسلام والمسلمين، فعفا رسول الله ﷺ عنهم.

كما أن الرسول ﷺ عفا عن أصحابه عليه السلام على أخطائهم حيث عفا عن حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه على إرساله الرسالة إلى مكة يخبر فيه خبر الاستعداد لمسير الرسول ﷺ إلى مكة.

وكذلك عفا عن الثلاثة الذين خلفوا وفيهم كعب بن مالك (رض) والقصة في غزوة تبوك.

ومن أهم أخلاقياته في الحروب انه ﷺ كان يحارب الأعداء متوكلا على الله لا على العدد والعدد وكان من أكبر ابطال العالم كله فكان شجاعا جريئا شديدا على الكفار رحيما بين أصحابه، وقد وصف الله عنه وعن أصحابه عليه السلام فيقول: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا.

الحادثات تتحدث عن أخلاقه النبيلة، والواقعات تتكلم عن ميزاته الكريمة، والبيانات تبين عن خصائصه الكبرى والقصص تقص عن قيمه الخلقية، والحكايات تحكي عن أسوته الحسنة، والروايات تروي عن أقواله وأحواله وأفعاله وتقاريره وأفكاره وشمائله وأخباره ﷺ فكان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، وكان دوما يفكر في أمته كيف ينجو من الشقاوة إلى السعادة الأبدية ومن عذاب جهنم إلى نعيم الجنة.

وقد ظهرت أخلاقه ﷺ في تدابيره السياسية والدبلوماسية والعسكرية مالم يشاهد العالم من قبل حيث انه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة كما أنه عقد مع يهود يثرب معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

ومن تدابيره السياسية والدبلوماسية الحكيمة الرائعة أنه ﷺ أرسل نعيم بن مسعود (رض) يوم الأحزاب إلى الأعداء من كفار مكة ويهود المدينة ليتمكن على هزيمتهم بحكمته الدبلوماسية فتشتتت وحدتهم وتفككت صفوفهم وقد نجح نجاحا كاملا في هذا الأمر المهم.

الحرب و اللواء الصيني سانتجو(Suntzu)

قبل 2500 عاما من الزمن كان في الصين لواء شهير اسمه سانتجو(Suntzu) وقد كتب كتابا في الحروب باسم فن الحرب (The art of war) فكتب فيه فصلا عن قانون الحرب ومهماتها فكتب! "The art of war to subdue the enemy without fighting"

يعني ! وإن من أهم قوانين الحرب هو أن تهزموا أعدائكم بدون أى قتال.

فهذا القانون الحربي لا يوجد في كتاب اللواء الصيني سانتجو فحسب: بل ويوجد في حياة محمد ﷺ الحربية وقد رأينا في غزوة الاحزاب بأن الرسول ﷺ هزم الأعداء بسياسته الحربية والدبلوماسية فانهزم الأعداء وفروا، و كما رأينا في فتح مكة.

وإنه لم يمكن المقارنة فيما بين أخلاق النبي ﷺ وبين أخلاق زعماء العالم قط، بل ويختلف أخلاقه ﷺ عن أخلاق زعماء العالم اختلافا واضحا كاختلاف الصورة والحقيقة حيث إن أخلاق محمد ﷺ فيها الحقيقة والروح ولايوجد مثل أخلاقه ﷺ في أي زعيم من زعماء العالم ولا في أى قائد من قادة العالم. و روى عن أنس بن مالك (رض) قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، وما قال لي لشئ صنعته، لم صنعته، ولا لشئ تركته لم تركته .....

وعن عائشة رضـ قالت:ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئا قط الا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادما ولا امرأة.

وفي جانب آخر انه قيل في زعيم من زعماء العالم إما هو نابوليون بونابرت أو

هو هتلر زعيم ألماني بأنه رفس برجله في بطن زوجه بأشد ما يرفس وكانت هى حامل فماتت ومات جنينها معا.

وإن الرسول ﷺ فتح العالم كله بقوة الإيمان والإخلاص وفتح العالم وغلبه بسلاح الحب والولاء، بالعطف والحنان، بالرأفة والرحمة، بالود والمحبة.

وفي جانب آخر إن هؤلاء الزعماء ما أكرموا الا مخافة شرهم فهم أعداء الدنيا وأعداء الإنسانية جمعاء، وشيمتهم القتل والغارة والبغض والعدوان والظلم والاستبداد واستعمار دولة إثر أخرى والتاريخ الإنساني شاهد على ذلك، فهم أشر الناس في دنيا الله تعالى.

و إن الرسول ﷺ كان رقيق القلب، سريع الدمع يرق للضعفاء ويرحم الحيوانات والدواب ويوصي بالرفق بها.

وفي جانب آخر أن زعماء العالم لا يبالون بعذاب الدواب والحيوانات بل ولا يرحمون اسراء المسلمين ويعذبونهم أشد العذاب ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب وتقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم من مسلمى العالم، في القدس، في فلسطين المحتلة منذ نصف قرن، في أركان بورما، في الشيشان المسلمة، في البوسنة والهرسك، في السودان، في الصومال، في الجزائر، في كشمير، في أفغانستان، في العراق، ولا سيما في"سجن غوانتانامو " بكيوبا وفي سجن"أبوغريب" وهم يعذبون أسراء المسلمين أشد ما يعذب الناس ناسا" وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيزالحميد"، نعم: الإنسانية هناك مطرودة. وأين كرامة الإنسانية؟ وأين أصوات الحقوق الإنسانية؟ وأين قادة الحقوق الإنسانية؟ وأين مسئولو المنظمات والحقوق الإنسانية؟ وأين الأخلاق النبوية؟

هيروشيما وناغاساكي والقنبلة الذرية

حقيقة، ليست بأسطورة، حقيقة حققتها في العالم أمريكا الظالمة، وما أمريكا؟ وما أدراك ما أمريكا؟ ألد عدوا للإنسانية، وتسكن فيها عقول يهودية صهيونية، وتخترع لها ولإسرائيل قنابل ذرية، (نووية كيماوية هيدروجينية نتروجينية وبكترولوجية) وتلقيها على هيروشيما مدينة يابانية وهى ذاخرة بسكانها، كما تلقي في ناغاساكي و دمرتها تدميرا. وهذه هى القصة القصيرة للقنبلة الذرية الهدامة.

فالحديث عن هيروشيما وناغاساكي حديث ذو شجون والواقعة وقعت في

العالم قبل سنين طوال، قبل 72عاما، فلم ينس الناس ولم تنس الدنيا ولم أنس ما دمت حيا ولم تصفح يابان.

ولن تعفو الدنيا عن أمريكا وعن مخترعها روبارت وبينهيمار Robert Openheimer (1904-1967) أبدا ما دامت السموات والأرض.

وإليكم أيها الأخ القاري قصة إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغاساكي في نظرة...

القنبلة التي ألقيت على هيروشيما كانت اسمها (Little boy الطفل الصغير) وفي6 أغسطس صباحا ساعة ثامنة وربع، عام 1945م حاملتها المقاتلة B-29 وقوة القنبلة 15.02 كيلوتن TNT ومجموع ما هلكوا من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتي الف وعشرة آلاف، ومائتي ألف وأربعين الف (ب ت) وأما القنبلة التي ألقيت في ناغاساكي فاسمها كانت Fat Man (رجل فخيم) حاملتها المقاتلة B-29 وتاريخ إلقائها التاسع/أغسطس الساعة الرابعة الا ثلاثة عشرة دقيقة في آخر الليل، عام 1945م ومجموع عدد الهلاك في هذه المدينة بالفور 73884 نسمة وعدد الجرحى 74793 نسمة ومجموع عدد الضحايا 150 ألف نسمة فهذه هى أمريكا رسول السلام وزعيم الحضارة في العالم الجديد توصلت أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبز جميع الآلات والمخترعات في التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله في الهول والفظاعة.[4]

اللهم اهد أمريكا وإسرائيل واهد الناس أجمعين في هاتين الدولتين أو مزقها كل ممزق واحفظ المسلمين جمعاء في أمريكا وفي مشارق الأرض ومغاربها. " اللهم آمين "

تم ملخص البحث

4.الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي رح، مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع) الطبعة الأولى 2004 م ، دمشق.

أما الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي رح (1914- 1999م) فهو من كبار العلماء في الهند وأستاذ الأساتذة، كان مديرا لندوة العلماء لكهنؤ الهند، أسس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام 1943م وعين أمينا عاما لدار العلوم ندوة العلماء عام 1961م . ألف كتابه المشهور " ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" عام 1944م واختير عضوافي المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام 1962م واختير لاستلام جائزة ملك فيصل العالمية عام 1980م لمؤلفه القيم " ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" كما اختير لاستلام جائز الشخصية الإسلامية العالمية لعام 1419هج بدبي، الإمارات العربية المتحدة وكان رئيسا لمركز آكسفورد للدراسات الإسلامية (انجلترا) كما كان رئيسا لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.

الباب الأول

الفصل الأول

7- من هو محمد ﷺ

8- الخلق لغة

9- الخلق اصطلاحا

10- وإنك لعلى خلق عظيم

11- أخلاقه وشمائله ﷺ

الفصل الثاني

12- العفو الكريم الشامل

13- لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

الفصل الأول

من هو محمد ﷺ

قبل أن نخوض في عمق البحث لا بد لنا ان نتعارف على هذه الشخصية العظيمة الذي سماه الله "محمدا" وقد وصف الله تعالى عنه في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، قد وصفه الله في كتابه الحكيم وقرآنه الكريم، لايمسه الا المطهرون، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكثير من كلمات الله العالية وآيات الله الثمينة في شأن حبيبه ﷺ التى ذكرها الله تعالى في الصحف الأولى وفى الكتب السماوية الأخرى ولكنها لا تفوقها مثل الآيات التي نزلها الله فى القرآن الكريم في شأن حبيبه ﷺ وقد جعله الله رحمة للعالمين حيث قال الله تعالى: وما أرسلناك إلارحمة للعالمين.[5] وقال تعالى! يا أيها النبي إنا أرسلنك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.[6] وقد أرسله الله تعالى لتبليغ رسالته إلى كافة الإنس والجن والعالم كله إلى يوم الدين فقال آمرا له ﷺ "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين.[7] وقد أرسله الله تعالى هاديا مهديا يهدي الله به لمن يشاء إلى صراط مستقيم، فقال تعالى: إنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، الا إلى الله تصير الأمور،[8] وقال تعالى! يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.[9] وقد أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وقد أرسله الله تعالى لإقامة الدين في أرض الله الواسعة بالدعوة والجهاد ولتكون كلمة الله هى العليا وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

نعم وهذا هو محمد ﷺ الذي من الله ببعثته على المؤمنين حيث قال تعالى: لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوعليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين.[10] وقد أرسله الله تعالى ليحكم فيما

5.القرآن الكريم، سورة الأنبياء-107
6.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-45،46
7.القرآن الكريم، سورة المائدة-67
8.القرآن الكريم، سورة الشورى-52،53
9.القرآن الكريم، سورة المائدة-1

بين الناس فقال: فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما.[11] وقد أرسله الله تعالى للناس يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

وقد أرسله الله تعالى وأنزل عليه الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم فقال تعالى**!** "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون".[12]

وهذا هو محمد ﷺ الذي يعطي كل ذي حق حقه ويعطي حقوق المرأة فكان بعض العرب في الجاهلية يدفنون بناتهم تحت التراب، تحت تراب الظلم والهمجية، تحت تراب الجهلة والشقاوة، بل ويدفنون الإنسانية جمعاء إذ أرسله الله تعالى وأنزل القرآن فيعلن محمد ﷺ بلسان جهوري متحديا للرسوم الجاهلية وطلاسم حياتهم الوثنية فيقول: وإذا الموؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت.[13] ويقول: وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون.[14]

وهذا هو محمد ﷺ الذي أمرنا الله تعالى أن نصلى ونسلم عليه فقال تعالى**!** إن الله وملئكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلواعليه وسلموا تسليما.

وهذا هو محمد ﷺ وحيد فريد يدعو العرب وهم في ظلام الجاهلية فيدعو إلى أهم واكبر فلسفات الحياة الإنسانية وهوتوحيد الله ووحدانيته تعالى بآيات الله الخالدة**!** "أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" وقال تعالى: "قل هوالله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد". ويعلن:" قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما اعبد لكم دينكم ولي دين".

نعم وهذا هو محمد ﷺ و ليس هو رسول الجن والإنس فحسب؟ بل وهو رسول أرسله الله تعالى الى العالمين قاطبة وهو نبي الشجر والحجر، نبي الشمس والقمر، نبي النجم والبحر، نبي الجبال والرمال، ونبي الحيوانات والنباتات، نبي السماوات والأرض نبي الجو والهواء بل هو نبي الملائكة وفوق ذلك كله وهو ﷺ نبي الأنبياء ورسول المرسلين، وهناك يتحقق قول الله تعالى :

10.القرآن الكريم، سورة آل عمران-164
11.القرآن الكريم، سورة النساء-65
12.القرآن الكريم، سورة النحل-44
13.القرآن الكريم، سورة التكوير-8،9
14.القرآن الكريم، سورة النحل-58

" وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون".[15]

وهذه هى أهم ميزة من مزاياه ومن أعظم صفاته ﷺ، وإن الأنبياء والرسل كلهم قد أرسلهم الله تعالى لوقت محدد وإلى قبائل محدودة وشعوب معينة ومحمد رسول الله ﷺ هو رسول إلى يوم القيامة وإلى الخلق جمعاء، فتبين أن الآيتين الكريمتين من أهم وأعظم الآيات التى ذكرها الله تعالى في شأن حبيبه صلى الله عليه و سلم ولايوجد مثل هذه الآية في الصحف الأولى ولا في الزبور ولا في التوراة ولا في الإنجيل وحتى لايوجد في القرآن الكريم أيضا، فنبوة كل نبى ورسالة كل رسول مشترطة بمجيئه صلى الله عليه وسلم اشترط الله بالإيمان به ونصره في الأعمال الدعوية وغيرها

حيث قال" لتؤمنن به ولتنصرنه " وأن عيسى عليه السلام سوف ينزل من السماء الرابع بجامع دمشق كأحد من أمته ﷺ عاملا بميثاقه وامتثالا لأمر الله تعالى، ويحكم في الأرض طوال أربعين سنة بإقامة الخلافة على منهاج النبوة وعلى منهاج الخلفاء الأربعة فهو مندوب عن جميع الأنبياء والمرسلين.

فمحمد ﷺ هو اسم للإنسان الكامل، اسم للشخصية العظيمة، اسم لسيد ولد آدم، اسم للصادق المصدوق النبي الأمين المأمون، وهو اسم للتاريخ ولسيد رجال التاريخ، اسم للانقلاب العالمي، اسم للقائد الأعظم والرسول الأكرم، اسم للداعية الكبير، وهو اسم لتوحيد الله سبحانه وتعالى واسم لقامع أساس الشرك والكفر، اسم لرحمة للعالمين، اسم للثورة العالمية الناجحة، اسم للعدل والإنصاف، اسم للمحسن إلى العالمين جمعاء وهو اسم لصاحب الشريعة السماوية الأخيرة الغراء، وهواسم لعبد الله ورسوله، وهو اسم لحبيب الله وخليله، اسم للحب والولاء، اسم للعطف والحنان والوفاء،

اسم للنبى الأمي الكريم، وهو اسم لصاحب الشريعة الغراء تركنا على محجة بيضاء ليلها كنهارها سواء، وهو اسم للأخلاق العظيمة الحميدة النبيلة الكريمة ، وهو اسم لتالي كتاب الله الخالد، اسم لمعلم الجن والإنس ومعلم العالم كله، وهو اسم لمتمم مكارم الأخلاق، وهو اسم لبداية منطلق الدعوة الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها وهو اسم لنهاية دورالظلم والهمجية ونهاية دوروأد البنات ووأدالإنسانية.

15.القرآن الكريم، سورة آل عمران-81،82

نعم! وهذا هو محمد ﷺ الذي أظهر أخلاقه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وقام بالحجة ودعا إلى الحق ونصح الأمة فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، و من براثن الشرك والضلالة إلى حدائق الإيمان والهداية.

وهذا هو محمد ﷺ الذي جمع الفضائل كلها، والمكارم جميعها والمحامد بأكملها، إليه انتهى الخير، وفيه تأصل البر وعلى يديه فاض النور وأشرقت الهداية وبه انقذ الله البشرية من هلاك محقق، الذي أخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جورالأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. فسيرته أجمل السير وصفاته أنبل الصفات وأخلاقه أعظم الأخلاق وحياته أروع الحياة وأوفاها وأشملها.

إن التاريخ الإنساني على وجه الارض لم يشاهد ولم يعرف نبيا من الأنبياء ولا عظيما من العظماء، ولا زعيما من الزعماء ولا مصلحا من المصلحين استوعب في صفاته الذاتية، والعقلية والنفسية والخلقية والدينية والروحيه والإجتماعية، والإدارية، والعسكرية، والدبلوماسية، والتربوية ما استوعبته شخصية النبي ﷺ وما اختصه الله به من الكمالات التي تشرق في كل جانب من جوانبها، وتضئ في كل لمحة من لمحاتها حتى استحق أن يصفه الله عزوجل بالنور في مثل قوله تعالى" قد جاءكم من الله نوروكتاب مبين"[16] ولا عجب في ذلك، فقد أرسله الله للناس كافة، وقدوة صالحة لهم ورحمة للعالمين.

وإن دينه خاتم الأديان السماوية وإن الله تعالى ختم سلسلة النبوة بنبوته، ووحي السماء برسالته ﷺ...

لقد أكمل الله دينه بالإسلام، وأتم به نعمته على الناس، فاستغنوا به عما سواه، ولم يعودوا بعده بحاجة إلى دين جديد، أو شريعة جديدة، فقد اشتمل الإسلام على كل ما يحتاج إليه الناس من تعاليم وتشريعات في جوانب الحياة جميعا، في العقائد والعبادات والمعاملات والمعاشرات والأخلاق، وغير ذلك من حقائق ومواعظ وقصص للأنبياء مع أممهم، ودعوة إلى النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال على وجود الله ووحدانيته والاستفادة من كل ذلك في صلاح الحياة وعمران الكون وتزكية النفوس والتوجه إلى عبادة الله وإفراده بالطاعة والدعاء والإنابة، بحيث يكتفي الناس بالإسلام، ولا يتطلعون إلى دين آخر يلتمسون منه الهداية، أو يبحثون عن مبدأ غريب وفكر مستورد وقانون دخيل، بدعوى استكمال نقص، أو استدراك على حكم، أو نحو ذلك من مزاعم باطلة، لا تصدر إلا عن جاهل أو كافر أو مغرض خبيث النية، أومسيء لفهم هذا الدين العظيم.

16.القرآن الكريم، سورة المائدة-15

واقرأ معي قوله سبحانه وتعالى:"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا "[17]

وقوله تعالى:"ما فرطنا في الكتاب من شيئ"[18] ولما كان الإسلام بهذه المثابة، فقد تكفل الله بحفظه، وضمن بقاءه وسلامته من التحريف والتبديل الذي أصاب الأديان قبله، وصدق الله العظيم حيث يقول: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[19]

وذلك، لأنه دين البشرية الخالد، الصالح لكل زمان، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه. [20]

إن رسول الله ﷺ، منذ أن بعثه الله عز وجل للناس نبيا ورسولا، كانت حياته صورة صادقة للدين الذي جاء به من عند الله، وما أجمل ما وصفته به السيدة عائشة رضى الله عنها، حينما سئلت عنه، فقالت:" كان خلقه القرآن ".

أى أنه كان قرآنا حيا متحركا، ملتزما بأحكامه، عاملا بتوجيهاته، متبعا لهديه، ومنتهيا عند نهيه، يحل حلاله ويحرم حرامه، يقف عند حدوده، ويحتكم إلى شريعته ويحكم بها، يدعو إلى نوره، ويجاهد لإعلاء كلمته، وإرساء قواعده، وتثبيت أركانه. ومن أجل ذلك، قال الله فيه:

"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا".[21]

فهوالقدوة إلى الخير والأسوة بين الناس إلى رضوان الله.

وأيما دعوة من الدعوات، لا يتأتى لها النجاح والإنتشار، ما لم يكن لها من صاحبها والداعين إليها قدوات صالحة في التطبيق العملي لتلك الدعوة في أخلاقهم وسلوكهم ومواقفهم في الحياة.

17.القرآنالكريم،سورةالمائدة-3

18.القرآن الكريم، سورة الأنعام- 3

19.القرآن الكريم، سورة الحجر-9

20.القرآن الكريم، سورة آل عمران-85

21.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-21

ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في ذلك. فقد صنعه الله على عينه، وأدبه فأحسن تأديبه، وأعده لحمل رسالته "والله أعلم حيث يجعل رسالته"[22] وتبليغ دعوته، والجهاد في سبيل الدين وإخلاص العبودية لرب العالمين.

وحسبه من الثناء والتكريم ما قال فيه العزيز الحكيم:

"وإنك لعلى خلق عظيم "[23]

أجل...فقد أرسله الله للناس بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.[24]

ومن أجل ذلك، فقد جعل الله طاعة الرسول ﷺ طاعة له سبحانه، فقال:

" من يطع الرسول فقد أطاع الله"[25] للتحذير

وربط بين محبته تعالى وصحة اتباع رسوله ﷺ فقال:

" قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"[26]

وأناط الفوز والفلاح بطاعته وطاعة رسوله فقال:

" ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما "[27]

وأعلن أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، فقال:

"ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين"[28]

ومما لا شك فيه أن رسول الإسلام ﷺ أظهر مظهره الكامل لأخلاقه فأبدع للحروب اصولا وقوانين في ظل كتاب الله الخالد وفي ضوء القرآن الكريم التي لم تشاهد الدنيا مثلها لا من قبله ولا من بعده ﷺ، وأظهر أخلاقه في سفره وحضره في أكله وشربه، في معاملاته مع الناس ومعاشراته مع أصحابه وحتى في معاملاته مع أعدائه.

وحتى في ساحات القتال وميادين الحرب، وقد أظهر أخلاقه العظيمة في الحروب مع أعدائه في كل قوله وفعله وفي كل سيره ومسيره، في كل حركته

22.القرآن الكريم، سورة الأنعام-124
23.القرآن الكريم، سورة القلم-4
24.القرآن الكريم، سورة الأحزاب- 46
25.القرآن الكريم، سورة النساء-80
26.القرآن الكريم، سورة آل عمران-31
27.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-71
28.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-40

ومظاهرته وفي كل حاله وترحاله وكان خلقه القرآن حيث قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فمن أخلاقه ﷺ أنه لم يبدأ يقاتل الأعداء الا وقد دعاهم أولا إلى الإسلام فيقول أسلموا تسلموا وكونوا عباداالله إخوانا. ويا أيها الناس قولوا لاإله الاّ الله تفلحوا. فمن أخلاقه ﷺ أنه ما كان زعيما جبارا مثل زعماء العالم الجبابرة فإنه صلى الله عليه وسلم كان متواضعا خاشعا وخاضعا لله جل وعلا حيث و جدناه ليلة بدرالكبرى ساجدا لله وهو يبكى بكاء شديدا ويقول ويتضرع إلى الله "اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض"

ومن أخلاقه ﷺ كان يمنع أصحابه عن قتل نساء الأعداء وأطفالهم الصغار وشيوخهم وضعفائهم ومرضاهم.

ومن أخلاقه ﷺ معاملاته مع أسراء بدرالكبرى السبعين، وقد أعتق بنت حاتم الطائى وأخاها عدي بن حاتم كما أعتق الآخرين من أسراء بدر بشرط تعليم كتابة أطفال المسلمين وبشروط أخرى الخفيفة.

فالتاريخ يشهد والدنيا تشهد ماذا كان معاملاته ﷺ مع الأعداء ما لا يوجد لها نظير في حياة أى زعيم من زعماء العالم في الحروب لا في ماضيه ولا في حاضره ولا في مستقبله ﷺ، فإذا نقلب صفحات التاريخ للحروب بين الحق والباطل، بين الإسلام والكفر، بين التوحيد والشرك، بين المسلمين والمشركين اليهوديين فنجد هناك من خير نماذج للأسوة الحسنة والأخلاق العظيمة الصادرة من سيرته ﷺ الطيبة سواء أكان في غزوة بدر الكبرى أو في غزوة أحد أو في غزوة بني قريظة أو في غزوة بني قينقاع أو في غزوة بني النضير أو في غزوة بني المصطلق أو في غزوة الأحزاب أو في صلح الحديبية أو في فتح مكة وغيرها في كل خطة من خطاتها الحربية وفي كل كلمة من كلماته وفي كل قول من أقواله وفي كل فكرة من أفكاره ﷺ ظهرت أخلاقه النبيلة.

الحادثات تتحدث عن أخلاقه الحميدة، والواقعات تتكلم عن ميزاته الكريمة، البيانات تتبين عن خصائصه الكبرى، والقصص تقص عن قيمه الخلقية، والحكايات تحكي عن أسوته الحسنة، والروايات تروي عن أقواله وأحواله وأفعاله وتقاريره وأفكاره وشمائله وأخباره وآرائه ﷺ فكان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة طويل الصمت، وكان يفكر في أمته كيف تنجو من الشقاوة إلى السعادة الأبدية ومن عذاب جهنم إلى نعيم الجنة.

ومن أهم أخلاقياته الحربية أنه ﷺ كان أكبر أبطال العالم كله وكان جريئا شديدا على الكفار ورحيما فيما بين أصحابه ﷺ وقد وصف الله عنه وعن أصحابه بشدته

وبطالته في الحرب والقتال فقال تعالى:" محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراعظيما"[29]

إن هذه الآية الكريمة تبين وتشير إلى أهم صفاته وأصحابه ﷺ وهى شدته على الكفار وبسالته وجرأته في ساحة القتال للدفاع عن الإسلام والمسلمين ولإقامة الدين في أرض الله الواسعة ولقمع أساس الكفر والشرك ولإعلاء كلمة الله ولأن لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله، وقد حرض الله تعالى الؤمنين على القتال فقال تعالى: "وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون"[30] وقال تعالى:"انفروا خفافا وثقالا و جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون"[31]

وقال تعالى:" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"[32] فهذه الأيات إنما تبين عن أخلاقه ﷺ في الحروب وإن الرسول صلى الله عليه وسلم ما ساهموا ولا شاركوا في الحروب الا لأمر من الله سبحانه وتعالى وامتثالا لأوامره تعالى.

الخلق لغة

أما الخلق فهو اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها، وهو مأخوذ من مادة (خ ل ق) التي تدل على تقدير الشيئ، قال ابن فارس ومن هذا المعنى" الخلق" وهي السجية لأن صاحبه قد قدر عليه، وفلان خليق بكذا.

وأخلق به، أي ما أخلقه، أي هو ممن يقدر فيه ذلك، والخلاق النصيب لأنه قد قدر لكل أحد نصيبه. وقال الراغب: الخَلق والخُلق (والخُلُقٌ) في الأصل واحد لكن خص الخَلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، قال تعالى:"وانك لعلى خلق عظيم" والخلاق أيضا

29.القرآن الكريم، سورة الفتح-29
30.القرآن الكريم، سورة التوبة -12
31.القرآن الكريم، سورة التوبة -41
32.القرآن الكريم، سورة الأنفال-60

ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه، قال تعالى: "وما له في الآخرة من خلاق"[33] والخليقة: الطبيعة والجمع الخلائق.

قال لبيد:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

والخلقة بالكسر:الفطرة، ويقال: خلق فلان لذلك بالضم كانه ممن يقدر فيه ذلك وترى فيه مخايله، والخلق والخلق السجية، يقال: خالق المؤمن وخالق الفاجر"

ويقال: فلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه.

قال الشاعر :

يا أيها المتحلي غير شيمته إن التخلق يأتي دونه الخلق

الخلق اصطلاحا

قال الماوردي رح: الأخلاق: غرائز كامنة، تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار.

وقال الجرجاني: الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة يصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث يصدرعنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقا سيئا، وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه [34]

33.القرآن الكريم، سورة البقرة- 200

34. صالح بن عبدالله و عبد الرحمن بن محمد،نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (جدة:المملكة العربية السعودية:دار الوسيلة للنشر والتوزيع) المجلد الخامس ص 1570 (الطبعة الرابعة 2006م)

وإنك لعلى خلق عظيم

إن هذه الآية الكريمة لهى من أعظم آيات الله تعالى في وصف النبي الكريم من الله تعالى وهى الشهادة الكبرى والتكريم العظيم من الله سبحانه تعالى–"وإنك لعلى خلق عظيم" أى وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات... يا له من شرف عظيم، لم يدرك شأوه بشر، فرب العزة جل وعلا يصف محمدا بهذا الوصف الجليل، ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيره الشهير في ظلال القرآن– (صفحة- 3656)"وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود! ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها:"وإنك لعلى خلق عظيم". ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لايبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد- ﷺ– تبرز من نواح شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعالي، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد–ﷺ– لتلقيها. وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ماهو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ وما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التى يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين".

ولقد قال ﷺ فيما رواه الإمام احمد (رح) في مسنده:" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ولقد قال عليه السلام:" أدبني ربي فأحسن تأديبي".

وكمال الخلق لفظ قصير يتناول في معناه كثيرا، فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها، ويشمل حسن العشرة ولطف المودة، ويشمل صلة الرحم والاحسان الى الجار القريب والبعيد، ويشمل حب الناس والرفق بهم، ويشمل التواضع، وتوطىء الكنف لهم، ويشمل البشر، ولقاء الناس به، ويشمل الأناة والحلم، ومنع الجفوة، ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ، ويشمل الحياء واقراء السلام على من عرف ومن لم يعرف، ويشمل الجود بما عنده، والزهد فيما ليس عنده، ويمنع الغلظ

والفظاظة، ويشمل العفو عن المسيء، وإقالة عثرته، ويشمل الرد على المسيئ بالاحسان، ويشمل تخليص القلب من الإحن، ويشمل الإعراض عن الجاهلية، وترك المهاترة، والمماراة والمجادلة، ويشمل التيسير، وترك التعسير، والتبشير، دون التنفير.

وفي الجملة الخلق الحسن يشمل تهذيب النفس، وتربية الوجدان، والتآلف مع الناس، والقرب اليهم، وتوطىء الكنف لهم، والتواضع والرفق بالضعفاء، والقرب منهم، والألم لآلامهم، والسرور لسرورهم، والاندماج فيهم من غير تأثر، ولا تجانف لإثم.

وان الخلق الحسن يؤثر في الدعوة الى الحق، بما لا يؤثر البرهان وضروب الأقيسة.

وإنه من أوصاف النبوة، ولقد قال الله تعالى في ثمرات الخلق المحمدي.

" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذاعزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين".[35]

أخلاقه وشمائله ﷺ

(حزنه وفكره ﷺ على امته كيف تنجو من النيران الأبدية)

وصفه ﷺ هند بن أبي هالة (ابن خديجة أم المؤمنين وخال الحسن والحسين رضي الله عنهما) وكان رجلا وصافا، فقال:

"كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي، ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئا، غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق، لم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، وضرب

35. القرآن الكريم، سورة آل عمران-159
مأخوذ من كتاب خاتم النبيين صفحة 238،239 للأستاذ أبو زهرة .

براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام.

ووصفه علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو من أعرف الناس به، وأكثرهم عشرة له، وأقدرهم على الوصف والبيان، فقال :

" لم يكن فاحشا، متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ما ضرب بيده شيئا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادما ولا امرأة، وما رأيته منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله، كان من أشدهم غضبا، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وإذا دخل بيته كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي على أحد منهم

بشره، ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا، لكل حال عنده عتاد ولا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرام، ولا تثنى فلتاته، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، ويوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب ".

وقال: " كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا عياب، ولا مشاح يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه، ولا يجيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكبار، ومالا يعنيه "، ترك الناس من ثلاث: كان لا يذم احدا ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق

جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم يضحك مما يضحكون، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجاوز فيقطعه بنهي أو قيام ".

"أجود الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ. وقد كسا الله نبيه لباس الجمال، وألقى عليه محبة ومهابة منه، وصفه هند بن أبي هالة، فقال :

"كان فخما، مفخما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر".

ووصفه البراء بن عازب – رضي الله عنه – فقال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوعا، وقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيت شيئا قط أحسن منه "، ووصفه أبو هريرة – رضي الله عنه – فقال: " كان ربعة، وهو إلى الطول أقرب، شديد البياض، أسود شعر اللحية، حسن الثغر، أهدب أشعار العينين، بعيد ما بين المنكبين (إلى أن قال): لم أر مثله قبل ولا بعد " ويقول أنس– رضي الله عنه: " ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ".

وكان رسول الله ﷺ مع ما أكرمه الله به من الرسالة والخلة والاصطفاء وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أعظم الناس اجتهادا في العبادة وحرصا عليها، وولعا بها.

يقول المغيرة بن شعبة (رض): " قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ".

وقالت عائشة–رضي الله عنها: " قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة".

وقال أبو ذر: " قام رسول الله ﷺ حتى أصبح بآية، والآية:" إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيزالحكيم "[36]

36. القرآن الكريم، سورة المائدة 118

وعن عائشة (رض) أيضا " كان يصوم حتى نقول:لا يفطر، ويفطر حتى نقول:لا يصوم".

وقال أنس (رض): " كان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته".

وعن عبد الله بن الشخير (رض)، قال: " أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، من البكاء".

وكان لا يكاد يتسلى عن الصلاة، ويرغب عنها إلى غيرها فيقول: "وجعلت قرة عيني في الصلاة ".

ويقول الصحابة – رضي الله عنهم-: كان إذا حزبه أمر صلى، وعن أبي الدرداء– رضي الله عنه -: كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه إلى المسجد، حتى تسكن الريح، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر، كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي.

وكان يحن إلى الصلاة، ويتحينها، فلا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار، حتى يقبل عليها، وكان يقول أحيانا لمؤذنه بلال : يابلال ! أقم الصلاة، أرحنا بها.

وكان النبي ﷺ من صفة الجود و الكرم على مالا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس (رض): كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة. وقال جابر: ما سئل شيئا قط فقال:لا

وكان النبي ﷺ أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه، قال علي: كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. قال أنس (رض): فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت،

فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبى طلحة عرى فى عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا .

وقد ثبت في معركة أحد، ويوم حنين، حين انكشف عنه الشجعان، وخلا الميدان وهو ثابت على بغلته، كأن لم يكن شئ ويقول: (من مجزوء الرجز)

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب [37]

37.أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رح (صحيح البخاري 503/1)

الفصل الثاني

العفو الكريم الشامل لمحمد ﷺ

لقد خلق الله تعالى محمدا ﷺ ليدعو الناس إلى وحدانية الله تعالى فيكون داعيا وهاديا إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فلا بد له أن يكون ذا خلق حسن كامل وعفو كريم شامل الذي يؤلف القلوب ويجمع النفوس، إلا من طغا واستكبر وآثر الهوى على الحق، فكان عفوه ﷺ يشمل على أصحابه وأعدائه وكان يحب عشيرته الأقربين، ويقرب الصديق ولايعنت أحدا بعداوة، بل كان الملك الطاهر بينهم يعف عن قول الخنا وفعله، ويبتعد عن الهوى، وجموحه، لايعادي ولايصخب، ولايفحش في قول أوعمل، فكان هو الصادق المصدوق، وهوالأمين المأمون الذي يعين الكل، ويغيث الضعيف، ويعين على نوائب الدهر، وكان يصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه ويحسن إلى من أساء إليه إلا أن يكون في ذلك انتهاك لحرمة من حرمات الله، أو اعتداء على فضيلة وكان ﷺ يفعل الخير ويتجنب الشر وكان التاجر السمح الصبور حتى أنه يروي بعض القرشيين أنه بايع النبى ﷺ بياعة قبل البعثة، وبقي شئ لم يأخذه من محمد ﷺ فانتظره النبي ﷺ ثلاث ليال، وكان يذهب فيقوم في مكانه الذي غادره فيه حتى لا يضل فلا يهتدى إليه فيضيع حقه الثابت له.

ولقد امتدت هذه الأخلاق إلى ما بعد النبوة فكانت دعامة الدعوة فسار بسنة العفو عن الإساءة والإعراض عن الجاهلية استجابة لقوله تعالى:"خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين "[38]

وقد كان ذلك الخلق يجذب الناس إلى إيمان من غير دليل ولا برهان وإن كان الحق واضحا في ذاته وزاده وضوحا خلق النبي الكريم، ولنذكر واقعة كان العفو فيها داعية الإسلام.

تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة قائلا، والناس قائلون، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو قائم والسيف مصلت على رأسه في يد الرجل، وهو يقول: من يمنعك مني؟ فقال عليه السلام بقلب مؤمن ولسان صادق: " الله "، فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه

38.القرآن الكريم، سورة الاعراف-199

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: " من يمنعك مني؟" قال : كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه. فدنا قلب الرجل بعد نفور.

وصار داعية لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن كان يريد قتله فقد ذهب الرجل إلى قومه يحببهم في محمد عليه السلام ودينه، يقول: " جئتكم من عند خير الناس " ولقد قال في مجمل أحواله هند بن أبى هالة، وهو ابن أم المؤمنين خديجة من غير النبي ﷺ. كان رسول الله ﷺ: يخزن لسانه الا بما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم شره، ويوهيه، معتدل الأمر.

غير مختلف ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبح لا يفعل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجوزه الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده، أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة[39]

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

إن القرآن الكريم يرشدنا في هذه الآية الكريمة بأن الرسول ﷺ كان أسوة كاملة لجميع طبقات البشر وقد كتب العلامة سليمان الندوي (رح) كتابه الشهير في السيرة النبوية " الرسالة المحمدية " وقد ذكر فيها كيف كان النبي ﷺ أسوة لجميع طبقات البشر ويصلح أن يكون قدوة لجميع أفراد بني آدم، على اختلاف صنائعهم ومهنهم وظروفهم وبيئاتهم في كل زمان ومكان، يقول– رحمه الله تعالى– "إذا كنت غنيا مثريا، فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلعه بين الحجاز والشام، وحين ملك خزائن البحرين، وإن كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب، وحين قدم إلى المدينة مهاجرا إليها من وطنه، وهولا يحمل من حطام الدنيا شيئا، وإن كنت ملكا فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب، وغلب على آفاقهم، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم، وإن كنت رعية ضعيفا، فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة أيام كان محكوما بمكة في نظام المشركين، وإن كنت فاتحا غالبا، فلك في حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في بدر وحنين ومكة، وإن كنت منهزما – لا قدر الله ذلك – فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى

39. العلامة عماد الدين ابن كثير (رح) البداية والنهاية ج 6 ص 33

ورفقائه المثخنين بالجراح، وإن كنت معلما، فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في صحن المسجد، وإن كنت تلميذا متعلما، فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثيا مسترشدا، وإن كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا، فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي، وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف، وأنت لا ناصرلك ولا معين، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة، لا ناصر ينصره، ولا معين يعينه، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق و يعلن به ، وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته ، وقهرت عناده، فظهر الحق على يديك، وزهق الباطل، واستتب الأمر، فانظر إلى النبي ﷺ يوم دخل مكة، وفتحها، وإن أردت أن تصلح أمرك، وتقوم على ضياعك، فانظر إليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر، وفدك، كيف دبر أمورها، وأصلح شؤونها، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها، إن كنت يتيما، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبدالله، وقد توفيا وابنهما صغير رضيع، وإن كنت صغير السن، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية، وإن كنت شابا فاقرأ سير راعي مكة، وإن كنت تاجرا مسافرا بالبضائع، فلاحظ شؤون سيد القافلة التي قصدت "بصرى" وإن كنت قاضيا أوحكما فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون، ثم ارجع البصر إليه مرة اخرى، وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل، يستوي عنده منهم الفقير المعدم، والغني المثري، وإن كنت زوجا فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة (رضي الله عنهما)، وإن كنت أبا أولاد فتعلم ماكان عليه والد فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، و جد الحسن والحسين، وأيا من كنت، وفي أي شأن كان شأنك، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت، وعلى أي حال بت أو اضحيت، فلك في حياة محمد صلى الله عليه وسلم هداية حسنة، وقدوة صالحة تضئ لك بنورها دياجي الحياة، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش، فتصلح ما اضطرب من أمورك، وتثقف بهديه أودك، وتقوم بسننه عوجك، وان السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق، وجماع التعاليم، لشعوب الأرض، وللناس كافة، في أطوارالحياة كلها، وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها، فالسيرة المحمدية نور للمستنير، وهديها نبراس للمستهدي، وإرشادها ملجأ لكل مسترشد"[40]

40.السيد سليمان الندوي(رح)،الرسالة المحمدية،(دمشق، دار ابن كثير) ص 117-119.

الباب الثاني

الفصل الأول

14- الحرب والمحاربة لغة

15- الحرب والمحاربة اصطلاحا

16-السلم لغة

17-السلم اصطلاحا

الفصل الثاني

18-الحرب عند العرب قبل الاسلام

19-الحرب بين العرب والفرس

20-الحرب البسوس

21-حرب داحس والغبراء

الفصل الثالث

22- الحرب في الجاهلية وفي الإسلام

23- نظرية الحرب في الإسلام

24- الحرب واللواء الصيني سانتجو

25- أحكام وقواعد الحرب في الإسلام

26- الفضيلة والسماحة في حروبه ﷺ

27- الرسول القائد ﷺ

28- أشداء على الكفار رحماء بينهم

29- الرسول ينشئ الجيل الإسلامي الجديد

الفصل الأول

الحرب والمحاربة لغة

أما الحرب: فهو اسم للحالة التي هي نقيض السلم، وهي مؤنثة لأنها في معنى المحاربة والمحاربة مصدر قولهم: حارب يحارب، والحرب والمحاربة مأخوذ من مادة (ح رب) التي تدل على السلب، ومن ذلك الحرب، يقال: حربت ماله أي سلبته، واشتقاق الحرب (بمعنى المقاتلة للعدو) من ذلك (لأنها تسلب الأرواح والأموال)، وقولهم أسد حرب، أي من شدة غضبه كأنه حرب شيئا أي سلبه وكذلك الرجل الحرب، يقال: حرب الرجل فهو حريب، أي سليب، وحرب بالكسر: اشتد غضبه والتحريب إثارة الحرب، ورجل محرب كأنه آلة حرب، وقيل صاحب حروب، والحربة آلة للحرب معروفة، والجمع حراب، وأصله الفعلة من الحرب أو الحراب، ومحراب المسجد، قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبا (سليبا) من أشغال الدنيا ومن توزع الخواطر، والحرب نقيض السلم وقال الجوهري: الحرب، تؤنث وقد تذكر، وتصغيرها حريب (بلا تاء) وقولهم: أنا حرب لمن حاربني أي عدو (لمن عاداني) يقال: تحاربوا واحتربوا وحاربوا بمعنى (وهو اقتتلوا)، والتحريب: التحريش، وحرّبته: أغضبته، وحربت السنان أي حددته، وحربه يحربه حربا، أخذ ماله وتركه بلا شئ، وقد حرب ماله أي سلبه، فهو محروب وحريب وأحربته أي دللته على ما يغنمه من عدو يغيرعليه، ودارالحرب: بلاد الكفر الذين لاصلح لهم مع المسلمين، والمحاربة والمقاتلة والمنازلة والحرب نقيض السلم، وقول الله تعالى" فأذنوا بحرب من الله ورسوله "[41] أي بقتل لأن الحرب داعية القتل، وقيل: المعنى فإن لم تنتهوا فأنتم حرب لله ورسوله ومحاربة الله ورسوله تعني المعصية وذلك في قوله تعالى:" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا"[42] وقيل المراد السرقة والقتل والكفر بعد الإيمان، وقيل نقض العهد وقطع السبيل. والمحروبون في حديث الحديبية " وإلا تركناهم محروبين" أي مسلوبين

41.القرآن الكريم، سورة البقرة – 279

42. القرآن الكريم، سورة المائدة – 33

منهوبين، والمحراب في حديث علي – رضي الله عنه – " فابعث عليهم رجلا محرابا " أي معروفا بالحرب عارفا بها وهو من أبنية المبالغة كالمعطاء من العطاء.[43]

الحرب والمحاربة اصطلاحا

قال القرطبي: اختلف العلماء في من يستحق اسم المحاربة، فقال مالك: المحارب: من حمل على الناس في مصر أو برية وكابرهم عن أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا دخل ولا عداوة، وقال قوم: لا تكون المحاربة في المصر. [44]

وعند الحنابلة لا تثبت المحاربة إلا بما يلى:

1- أن يكون ذلك في الصحراء.

2- أن يكون معهم سلاح.

3- أن يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال قهرا. هذا من الناحية الفقهية، أما من الناحية الأخلاقية والسلوكية فإن مصطلح المحاربة يشمل إلى جانب ما ذكره الفقهاء ما يفعله آكلو الربا، والمنافقون الذين يقاتلون المسلمين أو يعدون لقتالهم، وذلك كما فعل أبوعامر الراهب الذي قال للرسول ﷺ لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين، وقال: استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا مسجدا، فإني ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمدا من المدينة، فنزل قول الله تعالى: "وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل"[45] وتشمل المحاربة كذلك ما يفعله أهل الحرب من المشركين وأهل الكتاب ضد المسلمين[46]

43.صالح بن عبدالله و عبد الرحمن بن محمد،نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (جدة:المملكة العربية السعودية:دار الوسيلة للنشر والتوزيع) المجلد الخامس ص 1570 (الطبعة الرابعة 2006م)

44.صالح بن عبدالله و عبد الرحمن بن محمد،نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (جدة:المملكة العربية السعودية:دار الوسيلة للنشر والتوزيع) المجلد الخامس ص 1570 (الطبعة الرابعة 2006م)

45.القرآن الكريم، سورة التوبة -107

46.صالح بن عبدالله و عبد الرحمن بن محمد،نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (جدة:المملكة العربية السعودية:دار الوسيلة للنشر والتوزيع) المجلد الخامس ص 1570 (الطبعة الرابعة 2006م)

السلم لغة

أما السلم فهو(بفتح السين وكسرها) مأخوذ من مادة (س ل م) التي تدل على الصحة والعافية في كل ما اشتق منها، قال ابن فارس: ومن هذا الباب:السلم بمعنى الصلح، وهو يذكر ويؤنث، قال تعالى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله"[47] وقال الراغب:السلم والسلامة:التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، والسلام والسلم والسلم:الصلح، قال تعالى: "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا"[48]

قيل نزلت فيمن قتل بعد إقراره بالإسلام ومطالبته بالصلح. وقال ابن منظور: من معاني السلم: الاستسلام، والتسالم: التصالح. والمسالمة: المصالحة، وفي حديث الحديبية:"أنه أخذ ثمانين من أهل مكة سلما" قال ابن الأثير: يروى بكسر السين وفتحها، وهما لغتان للصلح، وهو المراد في الحديث على ما فسره الحميدي في غريبه. وقال الخطابي: إنه السلم، بفتح السين واللام، يرد الاستسلام والإذعان كقوله تعالى: "وألقوا إليكم السلم" أي الانقياد، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع. قال وهذا هو الأشبه بالقضية، فإنهم لم يؤخذوا عن صلح، وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا، وللأول وجه، و ذلك أنهم لم يجر معهم حرب، إنما لما عجزوا عن دفعهم أو النجاة منهم، رضوا أن يؤخذوا أسرى ولا يقتلوا، فكأنهم قد صولحوا على ذلك،

فسمي الانقياد صلحا، وهو السلم. ومنه كتابه بين قريش والأنصار: وإن سلم المؤمنين واحد لايسالم مؤمن دون مؤمن، أي لا يصالح دون أصحابه، وإنما يقع الصلح بينهم و بين عدوهم باجتماع ملئهم على ذلك. قال: ومن الأول حديث أبي قتاد: (لآتينك برجل سلم) أي أسير، لأنه استسلم وانقاد، واستسلم أي انقاد. ومنه الحديث:(أسلم سالمها الله) هو من المسالمة وترك الحرب، ويحتمل أن يكون دعاء وإخبارا، إما دعاء لها أن يسالمها الله ولايأمر بحربها، أو أخبر أن الله قد سالمها

ومنع من حربها، وحكي السلم والسلم الاستسلام وضد الحرب أيضا.

47.القرآن الكريم، سورة الأنفال-61
48. القرآن الكريم، سورة النساء-94

قال ابن منظور:السلام هوالله عز وجل، اسم من أسمائه (الحسنى) لسلامته من النقص والعيب والفناء (حكاه ابن قتيبة) وقيل معناه:أنه سلم مما يلحق الغير من آفات الغير والفناء، وأنه الباقي الدائم الذي تفنى الخلق ولايفنى.

وقال الغزالي:السلام (في أسماء الله تعالى معناه) الذي تسلم ذاته عن العيب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشر، حتى إذا كان كذلك، لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه، صادرة منه، وأفعاله سبحانه سالمة كلها عن الشر المطلق المراد لذاته، لا لخير حاصل في ضمنه أعظم منه.[49]

السلم اصطلاحا

قال الكفوي: السلم (بالكسر والسكون) ضد الحرب، وهو أيضا الإسلام، والسلم بمعنى الصلح يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث. قال ابن كثير رح: السلم: هو المسالمة والمصالحة والمهادنة .

وقال ابن حجر رح: قال أبو عبيدة:السلم والسلم واحد وهو الصلح.

وقال أبو عمر: السلم بالفتح الصلح، والسلم بالكسر الإسلام.

قال الفيروزآبادي: السلام والسلم والسلم:الصلح. وقوله تعالى:"ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا" قيل: نزلت فيمن قتل بعد إقراره بالإسلام ومطالبته بالصلح.[50]

49.صالح بن عبدالله و عبد الرحمن بن محمد، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (جدة:المملكة العربية السعودية:دار الوسيلة للنشر والتوزيع) المجلد السادس ص 2272 (الطبعة الأولى 1998م

50.القرآن الكريم، سورة النساء-94

الفصل الثاني

الحرب عند العرب قبل الإسلام

إن الحروب ليست ببدعا من العرب الذي جاء به الإسلام، بل كان العرب قبل الإسلام يتفاخرون فيما بينهم بالحروب وما يبلون فيها من بلاء حسن، وكانوا يرغبون في الذكر من الولد للقيام بمهمة الحرب ويزهدون في الأنثى منه لما يرونها كلا وعارا لهم لوقوعها فريسة للعدو في الحرب، وقد سجلت كتب التاريخ والأدب العربي ما اشتهر وعرف بأيام العرب، وهي عبارة عن مجموعة من الملاحم القتالية التي نشبت بين العرب قبل مبعث النبي ﷺ .

وقد ذكرت كتب التواريخ أياما كثيرة للعرب (البسوس- وداحس والغبراء- ويوم الفجار- يوم النسار- يوم ذي قار وغيرها) والمتأمل في هذه الملاحم والأيام يرى أن الحماسة الشديدة والعصبية العمياء وعدم الاكتراث بعواقب الأمور والشجاعة المقهورة التي لاتتسم بالعقل، كانت هي الوقود المحرك لهذه الحروب، هذا فضلا عن تفاهة الأسباب التي قامت من أجلها هذه المجازر، والمدة الزمنية الطويلة التي استمرت في بعضها عشرات السنين، والآثار الرهيبة التي خلفتها هذه الحروب، وعلى الرغم من أننا لم نقف على إحصاء دقيق لما خلفته هذه الحروب، إلا أن الكلمات التي قيلت في وصف آثارها من الفناء والخراب و تيتم الأطفال وترمل النساء .....الخ، لتوقفنا على مدى ما أحدثته الحرب في نفوس الناس من اليأس والشؤم ويصف لنا الشاعر زهير بن أبي سلمى طرفا من ذلك في معلقته المشهورة وهو يخاطب الساعين للسلام بين عبس وذبيان:

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فهو يقول للساعين للسلام: إنكما بتحملكما ديات الحرب من مالكما، أنقذتما عبسا وذبيان بعد ما يئسوا، ودقوا بينهما عطر منشم: هو اسم لامرأة كانت تبيع العطر يضرب بها المثل في التشاؤم، دليل على عظم اليأس الذي أصاب نفوس الناس من انتهاء هذه الحروب .

كانت الحرب مفخرة للعرب، وكانت سرعزهم وكرامتهم. وبها يعرفون فيما بينهم، وكانوا يكرهون أن يموت أحدهم حتف أنفه طريحا على الفراش، كما يتجلى هذا كله في أشعارهم :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

ويقول آخر:

وإني لا أزال أخا حروب إذا لم أجن كنت مجن جاني

والمتأمل في أشعار العرب، يجد أن الحرب كانت شغلهم الشاغل وحديث المجالس والنوادي، وكانت الحرب تورث فيهم الخراب والدمار والهلاك، وتسلبهم الأمن والهدوء والسلام، وكانوا يخافون إغارة القبائل بعضها على بعض.[51]

الحرب بين العرب والفرس

وقعت الحرب فيما بين العرب والفرس بيومين: يوم الصفقة ويوم ذي قار، وأشهرهما يوم ذي قار، وهو حرب جرت بين العرب والفرس بعد ظهور الإسلام، ولكن كتب التاريخ تدخله ضمن أيام العرب مع بعض ما وقع منها بعد البعثة كيومي الشيطين وسحبل لكونهما محض حروب جاهلية في بواعثها وتتلخص قصة هذا اليوم في أن كسرى سمع وشاية عن النعمان بن المنذر وأرسل إليه كتابا يطلب فيه أن يرسل إليه بعضا من حراء فتياتهم، فأبى النعمان ذلك. وطلب كسرى النعمان في المدائن فأيقن بالهلاك وسار حتى استودع أهله وأمواله هانئ بن مسعود ما خلفه النعمان عنده، فأبى هانئ ذلك.[52]

عزم كسرى على الإغارة على بن بكر بن واثل، فنصحه بعض مستشاريه من العرب أن ينتظر حتى الصيف حتى ترد بكر ماء يقال له ذوقار ففعل كسرى. ولما حان الصيف ونزلت بذي قار، أتاهم جند كسرى مع حلفائهم من العرب، وخيرهم قائد الجند بين أن يعطوا ما بأيديهم أو يأذنوا بحرب.فاختاروا الحرب بعد ما جرى بينهم من

51- الموسوعة العربية العالمية 451/3، (الطبعة الثانية 1999م) مؤسسة الموسوعة للنشر والتوزيع-الرياض
52- الموسوعة العربية العالمية 451/3، (الطبعة الثانية 1999م) مؤسسة الموسوعة للنشر والتوزيع-الرياض

مشورة. تقابل الجيشان، فخرج قائد من قواد كسرى يطلب المبارزة فبرز له يزيد بن حارثة من بني يشكر وشد عليه بالرمح فقتله، ثم تحرك رجال من بني

بكر وكمنوا لجيش الفرس كمينا في مكان يقال له الجبئ.

ثم خرجوا عليه وشدوا على قلب الجيش، وولت بعض أحلافهم هاربة، وانهزم الفرس وتبعتهم بكر تقتلهم بقية يومهم تأثر العرب كثيرا بهذا اليوم، إذ أنه أول يوم تهزم فيه العرب الفرس، فقالوا فيه شعرا كثيرا، هذا أعشى ربيعة يقول:

ونحن غداة ذي قار أقمنا وقد شهد القبائل محلبينا

وقد جاءوا بها جأواء فلقا ململة كتائبها طحونا[53]

حرب البسوس

حرب البسوس وقعت بين بكر وتغلب بن وائل، وقد دامت طوال أربعين سنة. واشتملت على أيام أولها النهي، وتتلخص قصة هذه الحرب في أن كليب بن وائل لما اجتمعت له معد كلها في ملكه طغى وتجبر واستشعر عزة ما بعدها عزة، حتى ضرب به المثل، فقيل: "أعز من كليب" . تزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان لمرة عشرة بنين أصغرهم سنا جساس، ولكنه أكبرهم همة، نزلت البسوس بنت منقذ- خالة جساس- عليه وصارت جارة لبني مرة. وكانت للبسوس ناقة وفصيل لها بين إبل جساس، فقتل كليب الفصيل ورمى الناقة في ضرعها لأن جساسا لم يستأذنه في إقامة خالته بينهم. واتمل جساس الضيم حفاظا على وحدة الحي ورعاية للمصاهرة. شرعت البسوس تعير جساسا بأنه لم يحم ذمارها ولم يرع جيرتها، فأوغرت صدره على كليب، ظفر جساس بكليب عند غدير يقال له الذنائب فقتله، وكان لكليب أخ اسمه مهلهل حرضه قومه على طلب ثأر أخيه. تباطأ مهلهل فشرع قومه يعيرونه بأنه معاقر خمر وزير نساء وحليف طيب ودهان، فترك كل ذلك ونهض للحرب. وكان مرة بن ذهل بن شيبان قد رحل بأهله عقب مقتل كليب إلى ماء يقال له النهي، ووقعت الحرب بين الحيين عند ما سار مهلهل إلى بني شيبان في النهى، ثم توالت الغارات واستمرت

53.الموسوعة العربية العالمية 452/3، (الطبعة الثانية 1999م) مؤسسة الموسوعة للنشر والتوزيع-الرياض

المعارك وبنو تغلب تطلب جساس ولا تناله، وتعقبه بنوتغلب لما علموا برحيله وظفروا به فجرحوه جرحا بليغا بعد أن قتل منهم خمسة عشر رجلا ثم مات جساس من جرحه، وتلت ذلك وقعات قليلة سئم بعدها الحيان الحرب فتداعوا للصلح فاصطلحوا.[54]

ومن الحروب المعرفة المشهورة والمعارك الحاسمة الطاحنة التي وقعت قبل

الإسلام بين القبائل العربية المتناحرة، حرب داحس والغبراء.

حرب داحس والغبراء

هذه الحرب إنما وقعت بين عبس وذبيان، واستمرت طوال أربعين سنة، واشتملت على أيام مشهورة من بين أيام القتال فيها المريقيب وهو أولها، وحوزة الأول والثاني والرقم واللوى. أثار هذه الحرب رهان على سباق بالأفراس بين قيس بن زهير بن بني عبس وحذيفة بن بدر من ذبيان. وادعى حذيفة السبق، وأبى قيس ذلك، لأن حذيفة أكمن في طريق الخيل بعض فتيان ذبيان ليردوا فرس قيس.فشبت إثر ذلك الحرب بين عبس وذبيان، وظلوا يتراوحون القتال أربعين سنة. ولما كثرت الوقعات وكادت القبيلتان تنفيان تداعى هرم بن سنان والحارث بن عوف لعقد الصلح بين القبيلتين، وتحمل الرجلان ديات القتلى ووضعت الحرب أوزارها.

فهذا تعريف موجز بالحروب والأيام الجاهلية قدمته إليك أيها القارئ لتعرف أن الناس قبل الإسلام كيف كانوا يخوضون الحروب، ويقتحمون غمارها لأسباب تافهة ويقضون معظم أعمارهم في أتون الحرب، وكانت الحرب هي الوسيلة لديهم لكسب معاشهم والنيل من أعدائهم، وبالحرب كانوا يتفاخرون يتمادحون ويتهاجون، وكانوا يرون الموت في الحرب دفاعا عن قبيلتهم وزعامتهم وسيادتهم عزة وكرامة وشرفا، والموت حتف الأنف طرحا على الفراش سبة وعارا و ذلا وشنارا كما قال شاعرهم:

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا

إني لمن معشر أفنى أوالهم قيل الكماة ألا أين المحامونا

54.الموسوعة العربية العالمية 452/3، (الطبعة الثانية 1999م) مؤسسة الموسوعة للنشر والتوزيع-الرياض

في هؤلاء رجال الحرب والقتال، والعنف والظلم والهمجية، بعث محمد صلى الله عليه وسلم كرسول الأمن والسلام، ونبي الرحمة والوئام، ودعاهم إلى ترك الخلافات والنزاعات، ونبذ العداوات والصراعات، وجمعهم على كلمة الحق، على كلمة واحدة وهي لا إله إلا الله. جمعهم على المحبة والمودة، والألفة والأخوة حتى صاروا إخوانا متحابين متألفين متوادين متوامين، فمن الله عليهم بهذه النعمة الكريمة والمنة العظيمة

بقوله سبحانه وتعالى " واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا واذكروا إذ كنتم أعداء فأف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون "[55] وقال عز وجل:

"وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم"[56]

من هنا يعرف مدى ما كانوا عليه من الخلافات والصراعات قبل الإسلام فألف الله بينهم بواسطة سيد ولد آدم محمد ﷺ . فمحمد ﷺ جاء يقضي على الظلم والجور والحرب والصراع كي يتكون مجتمع بشري يقوم على التوادد والتحابب، والتعاون والتكافل والتعاضد ليشد بعضه بعضا لاظلم فيه ولاهمجية. ومن هنا يتبين كذب قائل أن

الإسلام دين حرب وسيف، وأن محمدا ﷺ أول من سل السيف من غمده وشرع القتال ونبذ الحوار، إلى آخر ما يروى عن الكذابين والدجالين بهذا الصدد، وهم كذبة خدعة في ادعائهم ، اولئك هم الكذبة الخدعة، اولئك هم الكفرة الفجرة، بل كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا، إن يقولون إلا زورا، إن يقولون إلا باطلا.

55.القرآن الكريم، سورة آل عمران-103
56.القرآن الكريم، سورة الأنفال-63

الفصل الثالث

الحرب في الجاهلية وفي الإسلام

ومعنى الحرب كما عرف الناس في الجاهلية وهى عبارة عن القتل والإغارة والظلم والنهب والسلب، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر وكبت الضعيف وتخريب العمران وتدمير البنيان وهتك حرمات النساء والقوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل والعبث والفساد في الأرض وكانت في أيام الجاهلية تضطرم نيران الحرب في أمر تافه وكان الناس في الجاهلية يحاربون فيما بين الشعوب والقبائل كما شاهدنا في حرب البسوس وحرب الفجار، وهذه هى الحروب في الجاهلية.

أما الحرب في الإسلام فهى جهاد في سبيل الله، جهاد مقدس، جهاد لإعلاء كلمة الله في أرض الله الواسعة، جهاد في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة ومنشودة، يعتز بها المتجمع الإنساني على مر العصور، جهاد في تخليص الإنسان من نظام الظلم والهمجية إلى نظام العدل والإنصاف. من نظام القهر والعدوان، إلى نظام الرأفة والمحبة. من نظام يأكل فيه القوي الضعيف إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفا حتى يؤخذ منه. فالحرب في الإسلام هى جهاد تلبية للنداء القرآني " ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا "[57] وهى جهاد لتكون كلمة الله هى العليا ولأن لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وهى جهاد في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق الإنسانية والمروءة، وهى جهاد لإقامة الخلافة على منهاج النبوة وعلى منهاج الخلفاء الأربعة وهى جهاد لإقامة الشريعة الإسلامية السمحة الغراء الذي يعطي كل ذي حق حقه وينير العقول ويشعل مجامر القلوب.

57.القرآن الكريم، سورة النساء-75

نظرية الحرب في الإسلام

إن الحرب في ذاتها قبيحة لا شك فيه، ان الناس كلهم من بني آدم خلق من طين، كلهم في الأرض إخوانا فجاس الشيطان واتباعه في عروقهم وشراييهم، فوسوسوا في قلوبهم والقوا بينهم العداوة والبغضاء فبدأ الناس يحاربون فيما بينهم وقاتلوا وقتلوا فأول من قتل في الأرض من الإنسان وهو هابيل وقاتله قابيل (شقيقه) وسبب القتل "المرأة" فكان مهما يقتل في الأرض قتيلا كان اثمه على قابيل مع القاتل.

وهذه الحروب والقتال قبيحة جدا وممنوعة منعا باتا في الشريعة الإسلامية ولكن ليس كل إنسان في هذه الدنيا من الأخيار يبغى إصلاح المجتمع بل ويوجد هناك بعض من الأشرار يطلبون الدنيا وزخارفها ويسعون في حصول المادية ويطلبون ملك الدنيا وما فيها وزين لهم حب الشهوات من النساء فيتبعون النفس والهوى ويتبعون الشيطان فسوف يلقون غيا، ويفسدون في الأرض فسادا ويهلكون الحرث والنسل وهذا هو السبب أن الناس أحيانا يحتاجون إلى الحروب والقتال ضد هؤلاء الشياطين الطغاة شياطين الجن والإنس للدفع عن أنفسهم على اولئك الظالمين وقد قرأنا في الأصول

"أن القتال قبيح لذاته وحسن لغيره" أى أن القتال والحروب رغم أنها في ذاتها قبيحة ولكنها حسن لغيره حتى يدافع عن الظلم عليهم ويطرد الظالمين.

فالحروب والقتال أحيانا تكون مثل العملية الجراحية للجسد الإنساني حيث يوجد في العالم كثير من الملوك والسلاطين والأمم الذين هم كل على ظهرالأرض و ويل للنوع الإنساني وعذاب للأمم الصغيرة والضعيفة، ومنبع الفساد والمرض في جسم المجتمع البشري يسري منه السم في أعصابه وعروقه فكان لا بد من عملية جراحية، وكان قطع هذا الجزأ السقيم وإبعاده من الجسم السليم مظهرا كبيرا لربوبية رب العالمين ورحمته، يستوجب الحمد والثناء من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية بل من جميع أفراد الكون " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين"[58] فالإسلام ينظر الحروب والقتال كعملية جراحية لجسد المجتمع البشري فالقتال في سبيل الله فريضة من فرائض الإسلام يأثم المسلمون جميعا إذا تركه جميعهم وإذا قام به البعض وكان هذا البعض كافيا لصد الأعداء وإعلاء كلمة الله وحفظ دين الله و إظهاره على الدين كله وحفظ أموال المسلمين وأعراضهم وأرواحهم فإن القتال حينئذ يسقط عمن لم يقاتل ولا يعتبر إثما.

58.القرآن الكريم، سورة الأنعام-45

أما إن لم يقاتل أحد أو كان العدد الذي يقاتل من المسلمين أعداء الله المعتدين على دين الله وعلى المسلمين أقل من المطلوب فإن جميع المسلمين القادرين على القتال والمكلفين به شرعا يعتبرون آثمين ومجرمين وعصاة ويكون مصيرهم الذل والهوان والضياع واحتلال الأرض الإسلامية وقتل المسلمين واستبعادهم وسلب أموالهم وأعراضهم وهذا يفهم من قوله ﷺ"ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب"[59] والدليل على فريضية القتال في سبيل الله قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خيرلكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شرلكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"[60]

القتال في سبيل الله عن طريق استعمال القوة المسلحة ليس مبدأ من المبادئ التي أسس عليها الإسلام، وليس أصلا من الأصول التي لا بد منها للعقيدة أو العبادة أو المعاملة، إنما هو مبدأ لضرورة من أجل حماية الدعوة الإسلامية والكلمة الإسلامية والجماعة الإسلامية، مثله مثل القصاص والحدود والتعازير إن وجدت أسبابها وجبت، وإلا فلا، فهو بذلك واجب لغيره لا لذاته. وقد عرفنا أن الحديد لا يفلح الا بالحديد، وأن السيل لا يصده إلا الجبال وأن الوحوش لا تنزجر إلا بقوة أشد وحشية منها، وأن من لم يتذأب اكلته الذئاب ولله درالقائل:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ولقد بدأت الدعوة إلى الإسلام هادئة، لينة، مسالمة، مهادنة إلى أبعد حد ولم يكن في جوهرها، ولا في أهدافها ما يخيف أو يزعج أويتنافي مع العقل، بل كانت دعوة إلى التسامي بالإنسان فكريا و روحيا و وجدانيا على أساس من عبادة الله وحده، دون شريك أو وسيط كما كانت دعوة إلى الحرية والعزة والعدل والمساواة والإخاء، ولقد هزت المشاعر الحية السليمة بما أعلنته من مبادئ الرحمة والإحسان، والتطهر من كل ما يدنس حياة الإنسان أو يشقيها أو يستعبدها لغير خالقها وبارئها.

بدأت الدعوة كذلك وسارت على هذا الفهم ثلاثة عشرعاما كانت كافية في إحياء ميت الضمائر، وإنعاش روح النصفة وإظهار نوع من الشعور الإنساني النبيل نحو الذين عذبوا، وشردوا، وفارقوا الأهل والوطن بسبب عنت المتزعمين والمتسلطين والجبابرة، وذوي القلوب الصخرية، ولكن الذي حدث في النهاية كان شيئا تشيب له

59. رواه الطبراني بإسناد حسن

60.القرآن الكريم، سورة البقرة-216

الرؤوس، وتقشعرمن الجلود ويتقزز منه كل ذي مسكة من إنسانية أوعقل، حيث قرر مؤتمر الكافرين قتل محمد ﷺ وتشريد أصحابه، والقضاء النهائي على دعوته.[61] كما قال تعالى: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أويخرجوك ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين"[62]

وحين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة بعد أن فقدوا الأمل في حياة بلا عذاب في وطنهم وبين أهليهم وذويهم، لم يرحم كفار مكة غربتهم ولم يواسهم أحد في محنتهم، ولم يحاول أحد إرضاء خاطرهم بل وقفوا منهم موقفا أشد عداء من ذي قبل، وحاولوا حصرهم بمكة و سجنهم بها حتى يظلوا تحت سياط عذابهم، وفي قيود ظلمهم وجبروتهم وفعلا استطاعوا منع المستضعفين ومن لا قوة لهم ولا حيلة إلى أن أنقذ بعضهم بعض الفدائيين وظل الآخرون سجناء حتى فتح مكة.

والمؤمنون حين يطالبون بالقتال واستعمال القوة المسلحة مع عدوهم إنما يراد لهم أصلا أمران :

الأمر الأول هو: الدفاع عن أنفسهم ضد المعتدين والجبابرة و وحوش البشر.

الأمر الثاني هو: إيجاد الجو الآمن، والبيئة المسالمة الصالحة لغرس روح الإخاء والعدل والقيم السماوية السامية.

وهذاالقتال هو القتال في سبيل الله تعالى وسمي كذلك لأصول أربعة :

أولها : أن هذاالقتال إنما اضطر إليه المؤمنون بسبب إيمانهم بالله تعالى واعتصامهم به، واستسلامهم له وحده دون غيره، فهو قتال سببه انصهار البشرية في بوتقة الألوهية.

ثانيها : أنهم ملتزمون عند القتال بدين الله وواقفون عند حدوده في كل صغيرة وكبيرة، فالمقاتلون يقاتلون وهم سائرون في طريق الله وسبيله، لا ينحرفون عنه ولا يزيغون.

ثالثها : أن المؤمن حين يقاتل في هذا العالم الملئ بالكفروالفسق والفجور فإنه ليس له أمل إلا في الله وحده، ولانصر ولاجزاء إلا منه.

ورابعها : أن المؤمن إنما يقاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله و لأن يظهر الإسلام على الدين كله وأن تسير جميع

61.حسن أيوب ،الجهاد والفدائية في الإسلام صـ 45 بتصرف يسير

62.القرآن الكريم، سورة الأنفال -20.

الأمور في الحياة كوحدة متسقة مع النظام الكوني الذي أبدعه الله تعالى وأحكمه، والذي يحدد هذا الإتساق والانسجام هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأى انحراف عنهما يعتبرفي نظر المؤمن خروجا على النظام الرباني،

واعتداء على الحدود التي رسمها الله تعالى وهذا الاتساق والانسجام هو سبيل الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فالمؤمن إذا قاتل فإنما يقاتل مضطرا ليدافع عن نفسه وماله وعرضه وليوجد البيئة الصالحة لاستقرار المبادئ التي يؤمن بها ويدعو إليها، واستمرارها من أجل صالح البشر.

وحين يقاتل لا يخطر بباله إلا أنه عبد خاضع لله. متشوق لرضاه، مستسلم في ذلة وخضوع لأمره تعالى ونهيه، فقتاله في سبيل الله، وليس لهوى نفسي أوبلوغ شهوة ومأرب من مآرب الدنيا. وفي هذا يقول تعالى في سورة الحج: " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغيرحق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور"[63].

فالقتال كان ممنوعا ثم أذن الله به ووعد المؤمنين بنصره لهم، وهو قادر على ذلك. وبرر الله الإذن بالقتال بعد المنع منه بأن المؤمنين لم يتركوا لعقيدتهم وعبادتهم لربهم ولكن اخرجوا من ديارهم، وطردوا في وطنهم بغير حق استند إليه الكافرون المجرمون المضطهدون للمؤمنين، إنما اضطهدوهم لأنهم يقولون كلمة (ربنا الله) وكان الأولى أن يكرموا بسببها، ويعززوا لأجلها.

كما يبرر الله الإذن بالقتال بذكر مبدأ عام، وقاعدة إجتماعية ثابتة، وسنة مستقرة استقرارالمسلمات البديهيات وهى أنه: لولا استعمال القوة ضد المجرمين وعتاة الكافرين والمتمردين ما صفا جو تعبدي لمؤمن، ولاترك معبد لعابد، ولاتمكن أحد من ذكر الله تعالى وعبادته كما أمره ربه. لذلك أذن الله بالقتال، ووعد المقاتلين بالنصرالملازم لهم بشرط أن يلازموا عبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

63.القرآن الكريم، سورة الحج-39-41

والصوامع: أماكن العبادة المنعزلة للرهبان خاصة.
والبيع: للنصارى عامة يتعبدون فيها.
والصلوات: هى معابد اليهود.
والمساجد: معابد المسلمين.

قال الأستاذ سيد قطب في الظلال ج 5 ص 601 تعليقا على هذه الآيات: إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.[64]

والشر جامح، والباطل مسلح، وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له. فلابد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة، وتحرسها من الأشواك والسموم.

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب. فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر، وللصبر حد، وللإحتمال أمد، وللطا قة البشرية مدى تنتهى إليه، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم، ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيئون للدفاع ويتمكنون من وسائل الجهاد...وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان، وقبل أن يأذن لهم في القتال والإنطلاق إلى المعركة آذنهم بأنه هو سيتولى الدفاع عنهم، فهم في حمايته: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا "، وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم، فهم مخذولون حتما "إن الله لايحب كل خوان كفور" اهـ من الظلال.

فالإسلام شرع القتال في سبيل الله للوجوه الآتية .....

أولا: للمدافعة عن أنفسهم ضد المعتدين والإرهابيين والجبابرة ووحوش البشر والدليل على ذلك قال الله تعالى:" إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور"[65]

ثانيا: منع الظلم، والدليل على ذلك قوله تعالى: " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ".[66]

64.وهو الأستاذ سيد قطب الشهيد صاحب (في ظلال القرآن) كان ينتمي نفسه إلى الإخوان المسلمين في مصر.
65.القرآن الكريم، سورة ا(الحج 38)
66.القرآن الكريم، سورة الحج-39

ثالثا: منع الفتنة، والدليل على ذلك قوله تعالى– "وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلاعدوان الا على الظالمين.[67]

رابعا: لتكون "كلمة الله هى العليا"

خامسا: لتكون كلمة الذين كفروا السفلى.

سادسا: إيجاد الجو الآمن والبيئة المسالمة الصالحة لغرس روح الإخاء والعدل والقيم السماوية السامية.

سابعا: وهى نتيجة تمكين الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

ثامنا: إقامة حكم الله والخلافة في أرض الله الواسعة.

فالإسلام إذن ليس هو دين قتال ولم يكن النبي ﷺ رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب بل شرع الإسلام القتال في سبيل الله إذا احتيج إليه وإلى قدر ما احتيج إليه فقط.

وليست الحروب في الاسلام "دينية" أي يمليها التعصب الديني ضد أتباع الديانات الأخرى، فالإسلام دين التسامح الذي يقر بوجود الأمم والشعوب والأديان الأخرى، ولا يريد إبادة المخالفين في الدين، ولا يجيز الإكراه على الدين أو الاعتقاد، ويتعايش المسلمون مع غيرهم على صعيد راسخ من السلم والأمان، وحرية ممارسة الشعائر الدينية لغير المسلمين، قال الله تعالى: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.."[68] وقال تعالى أيضا "ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[69] قال ابن تيمية رح: لا نكره أحدا على الدين، والقتال لمن حاربنا، فان أسلم عصم ماله ودمه، واذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله، ولايقدر أحد أن ينقل أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أكره أحدا على الإسلام، لا ممتنعا ولا مقدورا عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا، لكن من أسلم، قبل منه ظاهر الإسلام ".

وليست الحروب في الإسلام بقصد التسلط على الامم والشعوب الأخرى، لأن ذلك ظلم والظلم حرام ممنوع في جميع الأديان .....

67.القرآن الكريم، سورة البقرة 193

68.القرآن الكريم، سورة البقرة 256

69.القرآن الكريم، سورة الحجرات-13

وليست الحروب أيضا في شريعة الإسلام حروبا استعمارية أو اقتصادية لسلب الشعوب أموالهم، ونهب خيراتهم وثرواتهم، أو لفتح الأسواق العالمية أمام المنتجات والصادرات ـ أو لنزعة عنصرية تعتمد على الشعور بأن شعبا ما أفضل شعوب العالم، قال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة" [70]

وقال سبحانه تعالى: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين "[71]. وقال الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (رح) لبعض ولاته: ان الله بعث محمدا بالحق هاديا، ولم يبعثه جابيا ". وقال ربعي بن عامر مبعوث سعد بن أبي وقاص الى الفرس لرستم قائد الفرس قبيل موقعة القادسية: " انا لم نأتكم لطلب الدنيا، ووالله لإسلامكم أحب الينا من غنائمكم ". وانما الحرب مشروعة في الإسلام بقصد حماية نشرالدعوة الإسلامية، وصون الدعاة الى دين الإسلام دين توحيد الله، والحق والعدل، والفضيلة والقيم السامية العليا التي تقيم المجتمع الفاضل، وتصحح أوضاع الناس وأنظمة الحياة العامة، فهي ضرورة لم تشرع الا اضطرارا، لدفع العدوان عن المسلمين وديارهم وأموالهم، ولمحاربة الظلم ونصرة المظلومين، أو حال التأهب للقتال، ولمنع الاعتداء على الدعاة، وكفالة حرية العقيدة ومنع الفتنة في الدين والتمكين من تبليغ دين الله القائم على نبذ الوثنية والشرك الذي يحتضن عادة الوانا من الخرافات، ويمس كرامة الإنسان، ويهدر حرمته، ووجوده، ويصادم عقله وفكره ويجعله فريسة الأوهام، ويمنعه التقدم والتحضر والمدنية، لاتخاذ إله آخر مع الله تعالى.

وذلك كله رحمة بمجموع الأمة ان تفسد، والاسلام هو الرحمة العامة للعالمين، والرحمة تقتضي إقامة العدل بين الناس والعدل يقضي بمحاربة الباطل، وقمع الظلم، وتمكين الناس من معرفة النظام الأصلح للبشرية في الدنيا والآخرة.

ولاشك بأن الضرورة تقدر بقدرها، فلا يصح أن تكون الحرب وسيلة للتمادي في الباطل، وإلحاق الظلم بالآخرين واستغلال الفرص للتدمير والتخريب وإرواء نزعة الاستبداد والتسلط على مخلوقات الله تعالى.

70.القرآن الكريم، سورة النساء 94

71.القرآن الكريم، سورة القصص-83

أما كون الحرب مشروعة لدفع العدوان والاعتداء والدفاع عن النفس والبلاد والأموال فلقول الله تعالى: " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير "[72] وقوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين "[73] ومنع الفتنة في الدين لقوله تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"[74]

ونصرة المظلومين واضطهاد الأقليات الإسلامية ومنعها من ممارسة شعائر الدين لقوله تعالى: " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"[75]75 وهذه المناصرة مقيدة بحال عدم وجود معاهدة سلمية مع الأمم الأخرى، لقوله تعالى: وان استنصروكم في الدين فعليكم النصرالا على قوم بينكم وبينهم ميثاق "[76]

وإن الحرب في الإسلام ضرورة يلجأ اليها في حدود الحق والعدل، فهي حرب دفاعية ضد العدوان، وقد تكون وقائية أوبمبادرة من المسلمين اذا اقتضت ظروف الحرب وسياستها اضعاف العدو الواحد في بلاد أخرى تابعة له، فتفتح حينئذ جبهة قتال أخرى في ذلك الجزء من البلاد، ولا يجوز قتل إنسان لمجرد أنه يدين بغير الإسلام وانما القتال لمن قاتل المسلمين، أو اعتدى عليهم أو حال بينهم وبين نشر الدعوة الإسلامية في أرجاء العالم.

وان أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم خارج الدولة الإسلامية هو السلم، وليس الحرب، فالحرب أمر طارئ على تلك العلاقة البشرية كما ذكر الطبري والثوري والأوزاعي وغيرهم من الفقهاء. لأن الاسلام دين السلام، وشعاره السلام، وتحية أبنائه أو اتباعه " السلام عليكم " ويحرص دائما على السلام المستقر الدائم القائم على التعاهد

72.القرآن الكريم، سورة الحج- 39
73.القرآن الكريم، سورة البقرة-19
74.القرآن الكريم، سورة البقرة 193
75.القرآن الكريم، سورة النساء-75
76.القرآن الكريم، سورة الأنفال- 72

والتوادد والعدل كما قال تعالى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم"[77]

فالحرب محصورة في الإسلام في أضيق نطاق ممكن فلا تتجاوز الجيوش المتحاربة الى المدنيين والمسالمين والعلماء والرهبان ونحوهم. واذا كانت الدعوة الإسلامية ذات نزعة عالمية يراد نشرها في أنحاء العالم بالوسائل السلمية، أو بالدعوة القائمة على الحجة والبرهان والقدوة الحسنة من المسلمين في أفعالهم ومعاملاتهم، فليس معنى هذا أن تفرض بالسيف، فان أثر السيف مرهون بوقته، وسرعان ما يزول أثره بعد انتهاء ظرف الحرب، وليس معنى ذلك أيضا أن المسلمين يريدون فرض شريعتهم على العالم فرضا حتى تكون هى الديانة العالمية الوحيدة، فان ذلك كله محاولة فاشلة، ومقاومة لسنة الوجود، ومغايرة لمراد الله تعالى في هذا العالم فانه أراد وجود عالم متغير الأديان.

فقال سبحانه تعالى: " ولوشاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين "[78] وقال تعالى أيضا: ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين "[79]. وأسلوب الدعوة الى الإسلام واضح يقوم على أساس السلم والعقل والإقناع، والإسلام دين بيان وبلاغ وإرشاد، ولا يفيده إلا القناعة بمبادئه وعقيدته، قال الله تعالى: "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"[80]

وشعار الدعاة الى الاسلام هو قول الله تعالى مخاطبا أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى: " قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا

بأنا مسلمون"[81] وقوله تعالى:لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين"[82]

77.القرآن الكريم، سورة الأنفال- 61
78.القرآن الكريم، سورة يونس-99
79.القرآن الكريم، سورة هود-118
80.القرآن الكريم، سورة النحل-125
81.القرآن الكريم، سورة آل عمران-64
82.القرآن الكريم، سورة الممتحنة-8

الحرب واللواء الصيني سانتجو(Suntzu)

قبل 2500 سنه من الزمن كان في الصين لواء شهير اسمه سانتجو (Suntzu) وقد كتب كتابا في الحروب باسم فن الحرب (The art of war) فكتب فيه فصلا عن قانون الحرب ومهماتها فكتب !

"The art of war to subdue the enemy without figting"

يعني ! وإن من أهم قوانين الحرب هو أن تهزموا أعدائكم بدون أى قتال.

فهذا القانون الحربي لايوجد في كتاب اللواء الصيني سانتجو فقط بل ويوجد في حياة محمد ﷺ الحربية كما رأينا في غزوة الأحزاب بأن الرسول الله ﷺ هزم الأعداء بسياسته و دبلوماسيته الحربية فانهزم الأعداء وفروا من المدينة وإليكم أيها الأخ القاري الفاضل قصة غزوة الأحزاب بتمامها من السيرة النبوية للأستاذ الندوي رحـ ومن الرحيق المختوم نقلا عن "زاد المعاد" والسيرة النبوية لابن هشام ومن البداية والنهاية، وهى كالتالية ...

ففي شوال سنة خمس الهجرية كانت غزوة الخندق أوغزوة الأحزاب،[83] وكانت من الحوادث التي لها أثر بعيد في تاريخ الإسلام والمسلمين، وفي تقرير مصير الدعوة الإسلامية، وفي المد الإسلامي، وكانت معركة حاسمة، ومحنة ابتلي فيها المسلمون ابتلاء لم يبتلوا بمثله.

"إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا"[84]

وكان سببها اليهود، فقد خرج نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، فقدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وكانوا قد جربوها واكتووا بنارها، فصاروا يتهيبونها، ويزهدون فيها، فزينها لهم الوفد اليهودي وهون أمرها، وقالوا:

إنا سنكون معكم حتى نستأصله، فسر ذلك قريشا، ونشطوا لما دعوهم إليه،

83.سيرة ابن هشام ؛ ق 2 ص 214
84.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-10-11

واجتمعوا لذلك، واتحدوا له، ثم خرج الوفد، فجاء غطفان، فدعاهم إلى ذلك، وطاف في القبائل، وعرض عليها مشروع غزو المدينة، وموافقة قريش عليه[85].

وتمت اتفاقية عسكرية، كان قريش واليهود وغطفان من أهم أعضائها واتفقوا على شروط، من أهمها أن تشارك غطفان في "جيش الاتحاد" أو عسكر الحلفاء، بستة آلاف مقاتل، وأن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل ثمر نخل خيبر لسنة واحدة، وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل، وغطفان ستة ألاف مقاتل، فكانوا عشرة آلاف، وأسندت قيادة الجيش إلى أبي سفيان [86]

ولما سمع رسول الله ﷺ بزحفهم إلى المدينة، وتحزب الأحزاب لقتال المسلمين، وعزمها على استئصال شأفتهم، أهم المسلمين ذلك، وتهيؤوا للحرب، وقرروا التحصن في المدينة والدفاع عنها، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.

هنالك أشار سلمان الفارسي (رض) بضرب الخندق على المدينة[87]، وكانت خطة حربية متبعة عند الفرس[88]، قال سلمان: يا رسول الله ! إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، وقبل رسول الله ﷺ رأيه فأمر بحفر الخندق في السهل الواقع شمال غربي المدينة وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو.

وقسم رسول الله ﷺ الخندق بين أصحابه، لكل عشرة منهم أربعون ذراعا[89] ، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، والعرض من تسعة إلى ما فوقها [90]

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق، ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا[91]، وكان البرد شديدا، ولايجدون من القوت إلا ما يسد الرمق، وقد لا يجدونه.

85.راجع سيرة ابن هشام ؛ ق2 ,214 - 215
86.سيرة ابن هشام ؛ ص219- 220
87.نفس المرجع ص – 224
88.وكلمة خندق معرب كلمة " كنده " وترد كلمة خندك في الفارسية أيضا بنفس المعنى (راجع فرهنك عميد)
89.سيرةابنكثيرج3ص192
90."غزوة الأحزاب " للأستاذ محمد أحمد با شميل
91.سيرة ابن هشام ق2 ص216

يقول أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين.

وكانوا مسرورين، يحمدون الله، ويرتجزون، ولا يشكون ولا يتعتبون. يقول أنس – رضي الله عنه -: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة.

فقالوا مجيبين له: (من الرجز)

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا[92]

قال:ويؤتون بملء كف من الشعير، فيصنع لهم بإهالة-[93] سنخة-[94]،[95]

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول، وقال: بسم الله،

وضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: "الله أكبر" أعطيت مفاتيح الشام، فقطع ثلثا آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصرالمدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة "[96]

هذا، والمسلمون في شك من حياتهم، يعضهم الجوع، ويؤذيهم البرد، وينذرهم العدو.

92.رواه البخاري في الصحيح عن أنس رضى الله عنه في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ، ورواه مسلم عن أنس رضى الله عنه نحوه

93.الإهالة : الودكة كل ما يؤتدم به

94.السنخة : المتغيرة الريح ، الفاسدة الطعم

95.سيرة ابن كثير ج3، ص184 ، نقلا عن البخاري

96. رواه البيهقي بسند عن البراء بن عازب الأنصاري رض (ابن كثير ، ج3، ص194)

وظهرت المعجزات على يد الرسول ﷺ فإذا اشتدت على المسلمين في بعض الخندق كدية، دعا بإناء من ماء، فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ونضح ذلك

الماء على تلك الكدية فانهالت وعادت كالكثيب[97] وظهرت البركة في طعام قليل، فشبع به عدد كبير، وكفى الجيش كله.

قال جابر بن عبد الله: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيبا أهيل أوأهيم[98]، فقلت: يا رسول الله ﷺ ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء ؟ قالت: عندي شعير وعناق[99]، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة[100]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي[101]، قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو ؟ فذكرت له، قال: كثير طيب. قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور، حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار.

فلما دخلت على امرأتي، قلت: ويحك! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم ويخمر[102] البرمة والتنور إذا أخذ منه،

ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع.

فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا.

وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي، فإن الناس قد أصابتهم مجاعة[103]

97.سيرة ابن هشام ، ق2 ص217-218
98.أهيل أو أهيم : السائل
99.العناق : الأنثى من ولد الماعز
100.البرمة : القدر
101.الأثافي : حجارة ثلاثة توضع فيها القدر
102.يخمر : يغطي
103.رواه البخاري في الجامع الصحيح باب "غزوة الخندق "

وفي رواية: قال جابر: جئته، فساررته فقلت: يا رسول الله ! ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ وقال: يا أصحاب الخندق ! إن جابرا قد صنع سورا[104]،[105] وأقبلت قريش، حتى نزلت أمام المدينة، في عشرة آلاف، وأقبلت غطفان بتوابعهم، فنزلوا امام المدينة أيضا، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف وبينه وبين قومه الخندق.

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقد وعهد، فحملهم حيي بن أخطب – سيد بني النضير – على نقض العهد، وقد فعل ذلك بنو قريظة بعد امتناع وتردد، وتحققه رسول الله ﷺ [106]فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وهم رسول الله ﷺ بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة، رفقا بالأنصار، وتخفيفا عنهم، فقد استقلوا بأكبر نصيب من أعباء الحرب. ثم عدل عن ذلك، بعد ما رأى من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة الثبات والاستقامة، والصمود أمام العدو، والإباء، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك[107].

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون، وعدوهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها !

ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في أرض المدينة، ومنهم الفارس المشهور: عمرو بن عبد ود، الذي كان يقوم بألف فارس، فلما وقف قال: من يبارز؟ فبرز علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –فقال: ياعمرو ! إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين، إلا أخذتها منه.

قال : أجل.

---

104. قال الفتني في " مجمع بحار الأنوار " : اللفظة فارسية وهو طعام العرس في لغة الفرس

105.رواه البخاري في صحيحه في باب " غزوة الخندق "

106.سيرة ابن هشام ق2، ص220 – 221

107.راجع للتفصيل سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص 222 – 223

قال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال : لا حاجة لي بذلك.

قال : فإني أدعوك إلى النزال. فقال له : لم يا بن أخي ؟ فوالله، ما أحب أن أقتلك. قال له علي – رضي الله عنه - : لكني والله أحب أن أقتلك.

فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره، وضرب وجهه، ثم أقبل على علي – رضي الله عنه – فتنازلا وتجاولا فقتله علي–رضي الله عنه–[108]وكان من فوارسهم نوفل بن مغيرة، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

تقول عائشة – أم المؤمنين – رضي الله عنها – وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهم بالحجاب: مر سعد بن معاذ وعليه درع قصيرة، قد خرجت منها ذراعه كلها، وهو يرتجز، فقالت له أمه : الحق ابني فقد والله أخرت. قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد: والله لوددت أن درع سعد انت أسبغ مما هي. وكان ما تخوفته عائشة – رضي الله عنها – فرمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل، ومات شهيدا في غزوة بني قريظة .

أحاط المشركون بالمسلمين، حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم، فحاصروهم قريبا من شهر، وأخذوا بكل ناحية، واشتد البلاء، وتجهر النفاق، واستأذن بعض الناس رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا: "إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا"[109].

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة، إذ جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني، فقال: يارسول الله! إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ :"إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة ".

فخرج نعيم بن مسعود، فأتى بني قريظة، وتكلم معهم بكلام جعلهم يشكون في صحة موقفهم وولائهم لقريش وغطفان الذين ليسوا من أهل البلد، وعدائهم للمهاجرين والأنصار، الذين هم أهل الدار وجيرانهم الدائمون، وأشار عليهم بأن لايقاتلوا مع قريش

108.ابن كثير ، ج3 ص202 – 203
109. القرآن الكريم، سورة الأحزاب-13

وغطفان حتى يأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديهم ثقة لهم، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشا، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته، وأخبرهم بأن اليهود قد ندموا على ما فعلوا، وسيطلبون منهم رجالا من أشرافهم تأمينا للعهد، وسيسلمونهم إلى النبي ﷺ وأصحابه فيضربون أعناقهم ثم خرج الى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش، فكان كلا الفريقين على حذر، وتوغرت صدورهم على اليهود، ودبت الفرقة بين الأحزاب، وتوجس كل منهم خيفة من صاحبه.

ولما طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين تكاسل اليهود، وطلبوا منهم رهنا من رجالهم، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدثهم به نعيم بن مسعود، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم، وتحقق لليهود صدق حديثه كذلك، وهكذا تخاذل بعضهم عن بعض وتمزق الشمل وتفرقت الكلمة.

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تقلب قدورهم وتطرح أبنيتهم، وقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدور، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل. وقام أبو سفيان إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، وأخبره حذيفة بن اليمان الذي أرسله رسول الله ﷺ عينا إلى

الأحزاب ينظر له ما فعل القوم، ثم يرجع، فأخبره بما رأى[110]، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة، وانصرف المسلمون ووضعوا السلاح[111]، وصدق الله العظيم :

110.اقرأالقصة بطولها في صحيح مسلم باب " غزوة الأحزاب "
111.اقرأ للتفصيل ابن كثير ج3 ص214- 221 ، رواية عن ابن إسحاق

" يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا "[112]

"ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا "[113]

ووضعت الحرب أوزارها، فلم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم "[114] واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة على أكثر تقدير، وقتل من المشركين أربعة[115].

وكذلك شاهدنا انهزام الأعداء بدون أي قتال في صلح الحديبية الذي هو مقدمة فتح مكة كما شاهدنا في فتح مكة وإليكم أيها الأخ القاري قصة فتح مكة وهى كما تلي....

ولما تم أمر الله في ترسيخ هذا الدين، وتربية المسلمين، وامتحن الله قلوبهم للتقوى وفاضت كأس قريش ظلما وعدوانا، وجحودا بالحق، وصدا عن سبيل الله، ومحاربة للإسلام وأهله، أراد الله أن يدخل رسوله والمسلمون مكة فاتحين غالبين، يطهروا الكعبة من الرجس و الأوثان وقول الزور، ويعيدوا مكة إلى مكانتها الأولى، فتكون مثابة للناس وأمنا، ويجعلون البيت مباركا وهدى للعالمين.

وقد هيأ الله لذلك أسبابا، وساعدت عليها قريش، بل دعت إليها من حيث

لا تشعر، فقد وقع حادث لم يسوغ ذلك فحسب، بل أوجبه، ولله جنود السموات والأرض.

كان قد تقرر في صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل، ودخلت بنوبكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده[116].

112.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-9
113.القرآن الكريم، سورة الأحزاب-25
114.سيرة ابن كثير ج3 ، ص221
115.سيرة ابن كثير ج3 ، ص222
116.سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص390

وكان بين بني بكر وبين خزاعة ترة قديمة، وعداء متوارث، يرجع تاريخه إلى ما قبل البعثة، وجاء الإسلام فحجز بينهم، وتشاغل الناس بشأنه، فلما كانت الهدنة، ودخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين،أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم،فبيت نفرمن بني بكر لخزاعة وهم على ماء لهم فأصابوا منهم رجالا، وتناوشوا واقتتلوا.

وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلا، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لبعض رجالهم: إنا قد دخلنا الحرم، إلهك! إلهك فقال: لا إله اليوم ! يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك[117].

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وأنشد أبياتا، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة، وسأله النصر والنجدة، ويخبره بأن قريشا أخلفوه الموعد، ونقضوا ميثاقه المؤكد، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم وقتلوا بني قومهم ركعا وسجدا، فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم !

وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق منهم الخبر، ويعذر إلى قريش، فبعث إليهم رجلا يخيرهم بين إحدى ثلاث خلال، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة، أو يبرؤوا من حلف من تولى كبر هذا النقض، وقاد الحملة على خزاعة، وهم بنو نفاثة من بني بكر، أو ينبذ إليهم على سواء، فأجابه بعض زعمائهم: لكن ننبذ إليهم على سواء وبذلك برئت ذمة قريش، وقامت عليهم الحجة. وقال رسول الله ﷺ للناس حين بلغه الخبر: " كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد المدة " وهكذا كان، فرهبت قريش مما صنعت، وندمت

على الجواب القاسي الذي أجاب به بعض سفهاءهم، فبعثوا أبا سفيان إلى رسول الله

صلى الله وسلم ليشد العقد ويزيد المدة[118].

وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ المدينة ودخل على ابنته"أم حبيبة " زوج النبي ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية! ما أدري أرغبت

117.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ج1 ، ص419 ، وابن هشام ، ق2 ، ص390

118.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1 ، ص 420، وابن هشام ، ق2 ، ص395 396

بي عن هذا الفرش أم رغبت به عني ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله علسه وسلم، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

وأتى أبو سفيان رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، وراود عمر وعليا وفاطمة على ذلك، فلم يجبه أحد إلى ذلك، وقالوا: إن الأمر أجل منه، حتى اختار في أمره، وقال لفاطمة: يا بنت محمد! هل لك أن تأمري بنيك هذا – وأشار إلى حسن بن علي، وهو غلام يدب – أن يجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، قالت: والله ما بلغ بني هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، ولما رأى علي حيرته، وما فيه من ضيق وكرب، قال له: ما أعلم لك شيئا يغني عنك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال : أوترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال: والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك، فقام أبوسفيان في المسجد، فقال: أيها الناس ! إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق[119].

ولما سمعت قريش القصة، قالوا جئتنا بما لا يغني عنا، ولا يغني عنك شيئا.

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، واستعان على أمره بالكتمان، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتجهز، وقال اللهم ! خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

ولما كان المجتمع الإسلامي المدني مجتمعا بشريا يعيش في واقع الحياة، وبين المشاعر الإنسانية، وخواطر النفس ورغباتها، كان الأفراد فيه يصيبون ويخطئون، وقد يكونون مؤولين في تصرفاتهم وأحكامهم، وقد يجانبهم الصواب في

هذا التأويل، وذلك من خصائص المجتمعات البشرية التي تتمتع بالحرية والثقة،

وكان رسول الله ﷺ حين لا يقرهم على هذا الخطأ، يلتمس لهم العذر، ويتسامح معهم، وكان من أوسع الناس صدرا مع هؤلاء المخطئين، وأكثرهم معرفة بفضلهم وحسن بلائهم في الجهاد، وسوابقهم في الإسلام، وقد حفظ لنا الحديث وكتب السيرة

119.سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص396-397

النبوية وتاريخ الإسلام مثل هذه الحوادث النادرة في الوقوع، وهو مما يدل على أمانتها وشهادتها بالحق.

ومن هذه الحوادث ما وقع لحاطب بن أبي بلتعة وهو ممن هاجر من مكة وشهد بدرا، فقد جاء في الروايات أن النبي ﷺ لما أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأسر الأمر، فتجهزالناس كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا، يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلا على ان تبلغه قريشا، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليا والزبير، فقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ إن فيها ظعينة معها كتاب إلى قريش فانطلقا تعادي بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستنزلاها وقالا: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب ! ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا، فقال لها علي – رضي الله عنه: أحلف بلله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب، أو لنجردنك، فلما رأت الجد منه، قالت: أعرض فأعرض، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسيرة رسول الله ﷺ إليهم.

فدعا رسول الله ﷺ حاطبا، فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت، ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش، لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فاحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، فقال عمر بن الخطاب: دعني يارسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسول، وقد نافق. فقال رسول لله ﷺ : إنه شهد بدرا، وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم، فذرفت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم[120].

وخرج رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان من المدينة

ومعه عشرة آلاف[121]، ومضى حتى نزل "مر الظهران"، وعمى الله الأخبار عن قريش، فهم على وجل وارتقاب.

120.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1 ، ص421 ، وقد وردت القصة في الصحاح

121.باب "غزوة الفتح في رمضان " صحيح البخاري

ولقي رسول الله ﷺ في الطريق ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فأعرض عنه، لما كان يلقاه منه من شدة الأذى والهجو، فشكا ذلك إلى علي، فقال له:ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف:" تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخطئين"[122] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا، ففعل ذلك فقال له رسول الله ﷺ:لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين" وحسن إسلامه بعد ذلك، وما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه[123].

وأمر رسول الله ﷺ الجيش، فأوقدوا النيران، وخرج أبو سفيان بن حرب يتجسس الأخبار، وهو يقول:"ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا" وكان العباس بن عبد المطلب، قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلما مهاجرا ولحق بالعسكر، فعرف صوت أبي سفيان، وقال: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصبح قريش! فأركبه في عجز بغلته، وخشي عليه أن يدركه أحد المسلمين فيقتله، وأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا.

قال العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قبل أن نضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق[124].

122.القرآن الكريم، سورة يوسف:92-91
123.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1 ، ص421
124.ابن هشام ، ق2 ، ص403، وزاد المعاد ، ج1، ص422

ووسع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمن والعفو، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلا من زهد في السلامة، وكره الحياة، فقال:" من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن [125].

ونهى رسول الله ﷺ جيشه عن أن يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة على أي إنسان إلا من اعترضهم وقاومهم، وأمر أن يعف الجيش عن أموال أهل مكة وممتلكاتهم وأن يكفوا أيديهم عنها[126].

وأمر رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب الإيمان.

وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج، وكانت القبائل تمر على راياتها، كلما مرت قبيلة سأل عباسا عنها وعن اسم القبائل، فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى مر الرسول ﷺ في كتيبة خضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لايرى منهم إلا الحدق من الحديد.

فقال: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، قال: يا أبا سفيان! إنها النبوة، قال: فنعم إذا[127].

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، ما تغني عنا دارك ؟ ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[128].

ودخل رسول الله ﷺ مكة، وهو واضع رأسه تواضعا لله،

125.ابن هشام ، ق2 ، ص403
126.سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص409
127.نفس المصدر ، ص404
128.نفس المصدر ، ص405، العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ج1 ، ص423

حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[129].

وفي دخول مكة فاتحا – وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي – رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[130]، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحدا من أبناء هاشم وأبناء أشراف قريش، وهم كثير.

وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة. وكلمه رجل يوم الفتح، فأخذته الرعدة، فقال: هون عليك فإني لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد[131].

ولما مر سعد بن عبادة بابي سفيان في كتيبة الأنصار، قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا، فلما حاذاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته شكا إليه ذاك أبو سفيان، قال: يا رسول الله ! ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال: وما قال؟ قال: كذا وكذا.

فاستنكر رسول الله ﷺ مقالة سعد، وقال:"بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشا، ويعظم الله الكعبة[132]، وأرسل إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس ابنه، و رأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه[133].

ولم يزد الرسول الملهم أن أبدل حرفا بحرف، وأبا بابن، فعالج نفس أبي سفيان المكلومة – وكان في حاجة إلى تأليف القلب – من غير أن يسيء إلى سعد، صاحب سوابق في الإسلام.

وكانت مناوشات قليلة بين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وبين أصحاب خالد بن الوليد، وأصيب من المشركين قرابة اثني عشر

129.السيرة النبوية لابن كثير، ج3، ص554
130.السيرة النبوية لابن كثير ، ج3، ص556
131.صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب " حجة الوداع "
132.رواه الأموي في المغازي (فتح الباري ، ج8، ص7
133.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1 ، ص423

رجلا، ثم انهزموا[134]، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين يدخلون مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم[135].

ولما نزل رسول الله ﷺ واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاث مائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول:"جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا، وما يبدئ الباطل وما يعيد"، والأصنام تتساقط على وجوهها.

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل، فأمر بالصور وبالتماثيل فكسرت[136].

ولما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، ودخل، وكان قد طلب منه المفتاح يوما قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول، ونال منه، فحكم عنه، وقال: يا عثمان ! لعلك ترى هذا المفتاح يوما بيدي، أضعه حيث شئت، فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعا، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال[137].

فلما خرج من الكعبة، قام إليه علي بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده ﷺ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليه و سلم، فقال رسول الله ﷺ:أين عثمان بن طلحة ؟ فدعي له، فقال هاك مفتاحك يا عثمان ! اليوم يوم بروفاء[138]،

خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم[139].

وفتح رسول الله ﷺ باب الكعبة، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: " لا إله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعده، ونصرعبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة ومال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ".

134.سيرة ابن هشام ، ق2، ص408 باختصار
135.المصدر السابق ، ص409
136.سيرة ابت هشام ، ق2، ص411، العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج2، ص424
137.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1، ص425 ، وراجع القصة في صحيح البخاري
138.السيرة النبوية لابن هشام ، ق2 ، ص411-412 ملخصا
139.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1 ، ص425، نقلا عن طبقات ابن سعد

يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء،

الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

"يأيها الناس إنا خلقنكم من ذكر وأنثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير "[140]

ثم قال رسول الله ﷺ : يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم !

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: " لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء "[141].

وأمر بلالا أن يصعد، فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلو، ومكة ترتج بالأذان.

ودخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل، وصلى ثماني ركعات صلاة الفتح شكرا لله عليه[142].

وسرقت امرأة من بني مخزوم – اسمها فاطمة، في هذه الغزوة ففزع قومها إلى أسامة بن زيد، لمكانته عند رسول الله ﷺ يستشفعونه، فلما كلم رسول الله ﷺ تلون وجهه، وقال: أتكلمني في حد من حدود الله ؟ قال أسامة : استغفر الله لي يا رسول الله !

فلما كان العشي، قام رسول الله ﷺ خطيبا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:" أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده،

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

140.القرآن الكريم، سورة الحجرات : 13

141.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1 ، ص425، نقلا عن طبقات ابن سعد

142.رواه البخاري في باب منزل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد، ج1 ص 425

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة، فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت.

ولما استقر الفتح، وأمن رسول الله عليه وسلم الناس كلهم، إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتد عن دينه، ومنهم من قتل مسلما غيلة، ومنهم من كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس، وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتد.

ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قد خرج الى اليمن كارها لدولة الإسلام وخائفا على نفسه، فاستأمنت له امرأته بعد أن فر، فأمنه النبي ﷺ وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا، وثب إليه رسول الله ﷺ وما عليه رداء، فرحا به وترحيبا، وأسلم عكرمة، فسر به رسول الله ﷺ سرورا عظيما، وحسن إسلامه، وكان له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام.

ومنهم وحشي مولى جبير بن مطعم، وقاتل عم الرسول وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه، فأسلم، وقبل رسول الله ﷺ إسلامه، ومنهم هبار بن الأسود، وكان قد عرض لزينب بنت الرسول ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر، ثم أسلم، وحسن إسلامه، واستؤمن لسارة ولإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه، فأمنهما فأسلمتا[143].

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم على الصفا، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

ولما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة.

قال رسول الله ﷺ لهن: بايعنني على ألا تشركن بالله شيئا، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذ من الرجال.

"ولا تسرقن " فقالت: إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة،

143.العلامة ابن القيم رح، زادالمعاد ، ج1، ص425

وما كنت أدري أكان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان- وكان شاهدا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ" وإنك لهند بنت عتبة " ؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

ثم قال:" ولا تزنين" فقالت: يارسول الله ! وهل تزني الحرة ؟[144].

ثم قال: " ولا تقتلن أولادكن "، قالت: ربيناهم صغارا، وقتلتهم كبارا، فأنت وهم أعلم[145]، فضحك عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حتى استغرق.

ثم قال: ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن "، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل.

ثم قال: ولا يعصينني " فقالت: في معروف[146] .

ولما فتح الله مكة على رسوله – وهي بلده ووطنه ومولده – تحدث الأنصار فيما بينهم، فقالوا: إن رسول الله ﷺ قد فتح الله عليه أرضه وبلده، فهو مقيم بها، لا يعود إلى المدينة.

وسأل رسول الله ﷺ الأنصار عن حديثهم، ولا يعرفه غيرهم، فاستحيوا ثم أقروا به، فقال: معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم[147].

هم فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له: أي فضالة ! قال: نعم يا رسول الله ! فقال: ماذا كانت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: أستغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما خلق الله شيئا أحب إلي منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، قالت: هلم إلى الحديث، قال: يأبى الله عليك والإسلام[148].

144.السيرة النبوية لابن كثير ، ج3، ص603
145.السيرة الحلبية ، ج 3،ص 109
146.السيرة النبوية لابن كثير ج3، ص602 -603
147.سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص 416
148.سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص 417، وزاد المعاد ، ج 1 ، ص 426

وبث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة، فكسرت كلها، منها اللات والعزى، ومنا ة الثالثة الأخرى، ونادى منادي بمكة:

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنما إلا كسره " وبعث رجالا من أصحابه إلى القبائل، فهدموا أصنامها[149]، وقال جابر: كان بيت في الجاهلية يقال له " ذوالخلصة " و " الكعبة اليمانية " و " الكعبة الشامية "، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تريحني من " ذي الخلصة " ؟ يقول جابر: فنفرت في مئة وخمسين راكبا من أحمس، (وكانوا أصحاب خيل) فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس[150].

وقام رسول الله ﷺ في مكة خطيبا، فأعلن حرمة مكة إلى يوم القيامة: " لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، أو يعضد[151] بها شجرة " وقال: لم تحلل لأحد كان قبلي، ولاتحل لأحد يكون بعدي "، ثم انصرف راجعا إلى المدينة[152].

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب، فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام، وصاروا يدخلون فيه أرسالا، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف، وكانت ممتنعة عن الدخول في الإسلام لمكانة هذا الحلف، وكانت قبائل ترهب قريشا وتجلها، فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورغبوا فيه زال الحاجز، وكانت قبائل تعتبر مكة لا يفتحها ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد لها سوءا.

ولا يزال فيها من عاصر حادثة الفيل، وشاهد ما فعل بأبرهة، فيقولون:

اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق[153].

149.راجع للتفصيل زاد المعاد ، ج 1 ، ص 426
150.الجامع الصحيح للبخاري ، باب " غزوة ذي الخلصة "
151.يعضد : يقطع
152.راجع زاد المعاد ، ج1 ، ص 425- 426
153.راجع صحيح البخاري عن عمروبن سلمة (باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح)

فلما فتح الله لنبيه مكة، وخضعت قريش للإسلام طوعا أو كرها، أقبل العرب على الإسلام إقبالا لم يعرف قبل ذلك، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجا[154]، وصدق الله العظيم: "إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا"[155]

وأمر رسول الله ﷺ قبل أن يغادر مكة عتاب بن أسيد[156]، يدير أمورها، ويقيم الموسم والحج بالمسلمين، وهو دون العشرين سنة، أو فوقها قليلا، وذلك بمحضر من أهل الأسنان والفضل، فدل على أن المناصب على الجدارة والقوة، وأقره أبو بكر في خلافته[157]

أحكام وقواعد الحرب في الإسلام

إن الإسلام هو دين العدالة، ودين الرحمة، ودين الخير للناس أجمعين. والإسلام هو دين كامل شامل، فالإسلام أبدع للحروب أصولا وقوانين فحرم قتل كل إنسان لايقاتل إما بسبب ضعفه أوبسبب انشغاله بأمور غير امور الحرب بحيث لا يهتم بالحرب ولا يفكر فيها وليس من شأنه المشاركة في القتال.

وهؤلاءهم: الولدان والنساء، والرجال و المرضى والمقعدون و العميان والرهبان في معابدهم، والزراع والأجراء، والشيوخ الفانون الذين لا يديرون رأيا ولا يمسكون بسيف وإن شريعة الإسلام نظمت حالة الحرب في بدئها وأثنائها وبعد انتهائها ووضعت القواعد الواجبة التطبيق في هذه المجالات على أساس وطيد من ضرورة مراعاة الظروف الاستثنائية الناشئة عن الحرب، وأن الحرب ليست كفاحا بين الشعوب، وانما هي حالة طارئة تحتاج الى حسم سريع، وحل عادل وتسوية شاملة للآثار الناجمة عنها ومحصورة في دائرة القتال القائم، أوبين الجيوش المتحاربة فقط.

يجب قبل بدء الحرب كما يرى بعض الفقهاء ابلاغ الأعداء مضمون الدعوة الاسلامية سواء بلغتهم ام لا، للتعرف على مبادئ عقيدة الاسلام، وترك الفرصة المواتية للتفكر في احتمال قبول دعوة الإسلام، أو الرضا بالمعاهدة السلمية لتوفير مناخ الأمن والسلام والاستقرار في العلاقات الدولية.

154.مستفاد من كتاب " رحمة للعالمين " لمؤلفه الشهير قاضي محمد سليمان المنصورفوري

155.القرآن الكريم، سورة النصر: 1-2

156.ابن هشام ، ق2، ص440

157.راجع ألإصابة في تمييز الصحابة وأسد الغابة في أحوال الصحابة

قال الله تعالى: " ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أويسلمون " [158]
وقال عبد الله بن عباس (رض):" ما قاتل رسول الله ﷺ قوما قط إلا دعاهم "

وقال بريدة:" كان رسول الله ﷺ اذا أمر أميرا على جيش او سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: واذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم الى ثلاث خصال أوخلال، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم الى الإسلام، فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فان أبوا فسلهم الجزية ". فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم.

وسأل الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه يوم خيبر النبي ﷺ فقال: " يا رسول الله، اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال انفذ، على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم الى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ".

وإذا رفض العدو المسالمة أو الإسلام يتبع في الغالب إبلاغ الدعوة الإسلامية الذي يشبه الإنذار الحربي أو(اعلان الحرب) منعا من المباغتة والغدر. وقد يبدأ المسلمون بقتال العدو أحيانا دون اعلان للحرب اذا كانت حالة الحرب قائمة مع الاعداء، أو اذا باشر العدو الحرب فعلا، أوتأهب للقتال، أونقض المعاهدة واستعد لشن الحرب الهجومية لبدء العدو الغدر والخيانة. وهذا ظرف خاص تقتضيه سياسة الحرب ووضع الخطة المناسبة لتحقيق النصر قبل المفاجأة أوالمباغتة المنتظرة من قبل العدو.

وتحكم قواعد الحرب في الإسلام قاعدة أو مبدأ " المعاملة بالمثل" مالم تكن الوسائل الحربية ضارة ضررا عاما، أو مبيدة للجنس البشري، أو دنيئة خسيسة، تنبذها مكارم الأخلاق، وتتصادم مع الاعتبارات والمبادىء الإنسانية التى سنذكرها فيما بعد سواء في حال استعمال وسائل الحرب المادية، أو المعنوية. وذلك لأن أكثر آيات القرآن التي تحرض على القتال يراد بها مضاهاة أو مماثلة صنيع الأعداء، أو التدريب على القتال وفنونه، ورفع مستوى الاعداد الحربي.

ففي نطاق الوسائل المادية: يستعان على الأعداء في رأي أغلب الفقهاء بكل وسيلة تؤدي إلى كسر شوكتهم، سواء أكانت الوسيلة شديدة أم خفيفة، لكن استعمال

158.القرآن الكريم، سورة الفتح: 16

الأشد مع إمكان تحقيق المقصود بالأخف فيه كراهة، لأنه إفساد في غير محل الحاجة، كما قال الكمال بن الهمام، فيجوز استخدام السلاح الأبيض والآلات الثقيلة، وتسميم العدو بمثل قاذفات اللهب والغازات السامة. ولكن لا يجوز عند فقهاء المالكية والشافعية والحنابلة تحريق أحد من الأعداء بالنار لا حيا ولا ميتا، لقوله ﷺ :" فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار" اللفظ لابي داؤد.أى باستخدام النار. واستثنى المالكية حالة المعاملة بالمثل أى استعمال النار للضرورة الحربية إذا استعملها العدو. ولم يجز المالكية تسميم العدو، سواء بوضع السم في المياه أو الغازات أو السهام، وينبغي اعتماد هذا المذهب في الشريعة وفى العصر الحاضر وغيره بسبب الضرر العام الذي يترتب على استعمال هذه الغازات.

ويجوز التغريق بالماء، ولا مانع من قطع المياه عن الجيش المقاتل لحمله على التسليم. لكن لا تجوز الحرب البكترولوجية والكيماوية والذرية لمنافاتها مبدأ الرحمة العامة وأوامر الشرع بالإحسان في القتل كما لا تجوز المثلة: وهي الفعلة الشنيعة التى تصيب الأجسام وتشوهها من غير فائدة، كرض الرأس، وقطع الأذن أو الأنف، أو العبث باليد أوالبطن، أو فقء العين ونحو ذلك بعد الموت، لحديث رواه البخارى: " نهى رسول الله ﷺ عن النهبي والمثلة وحديث آخر رواه مسلم وغيره" اغزوا– أى حاربوا– ولا تغلوا- لا تخونوا بأخذ شيء من غنائم الحرب – ولاتغدروا ولا تمثلوا". والنهى عن المثلة يتناول "رصاص دمدم " لأنه أداة تمثيل يمكن توقيها وتجنبها.

ولا مانع من الحصار الحربي برا وبحرا، لمنع الامداد والإلجاء الى التسليم، وكذا الحصار الاقتصادي لتضييق على العدو وإرباك مخططاته وإضعافه، لقوله تعالى: فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد" [159] وكان التعرض لقافلة أبي سفيان زعيم المشركين في مكة قبل معركة بدر نوعا من الحصار الاقتصادي.

159. القرآن الكريم، سورة التوبة-**5**

وتقضي طبيعة الحرب إحداث ظاهرة التخريب والتدمير للحصون والقلاع، وقطع الأشجار للضرورات أوالمصلحة الحربية، لقوله تعالى:" ماقطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين" [160]

واللينة : شجرة النخيل التي تمرها سمين ويسمى العجوة.

ومنع أبوبكر الصديق (رض) والليث بن سعد وأبو ثور والأوزاعي من الفقهاء والحنابلة التخريب والتحريق والهدم وقطع الأشجارالمثمرة، لقول أبي بكر (رض) في وصيته (ليزيد بن أبي سفيان)"واني موصيك بعشر: لا تقتل امرأة ولاصبيا ولا كبيرا هرما، ولاتقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولاتعقرن شاة ولا بعيرا الا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولاتجبن " وقال الأوزاعي : لا يحل للمسلمين أن يفعلوا شيئا مما يرجع الى التخريب في دار الحرب، لأن ذلك فساد، والله تعالى لا يحب الفساد وهذه ظواهر حضارية رائعة وإنسانية متميزة سبق الخلفاء والفقهاء المسلمون إلى تقريرها منذ بزوغ فجر الإسلام قبل أربعة عشر قرنا.

وأما الوسائل المعنوية التي لا تخل بقواعد الإنسانية والشرف والمبادئ الأخلاقية الكريمة، فتجوز في الإسلام، كاستعمال الحيل والخداع المشروع لتحقيق الظفر، للحديث النبوي:"الحرب خدعة "وقال النووي: اتفق العلماء على جواز خداع الكفار أي الأعداء– في الحرب، كيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل.

ويجوز إيقاع العدو في كمين، واستخدام الألغام البرية والبحرية، وتفريق صفوف العدو، ولو ببذل المال، وحرب الأعصاب، وإضعاف معنويات العدو بكل الوسائل الممكنة، والتجسس، ونحو ذلك.

هناك في شريعة الحرب في الاسلام ضمانات كثيرة لإنهاء الحرب وإقرارالسلام.

أولها:- نظرة الإخاء العام للبشرية والتكريم الشامل للإنسانية قاطبة، دون تفرقة جنسية أوعنصرية أو طبقية، فالناس جميعا مخلوقات الله وهم على درجة واحدة من المساواة في الاعتبارات الإنسانية، والأخوة البشرية، وأثبت القرآن الكريم مبدأ الاخوة الإنسانية في قوله تعالى: " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق

160.القرآن الكريم، سورة الحشر-5

منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا"[161] وقال تعالى: " ولقد كرمنا بنى آدم"[162]

ثانيها:- حرص الإسلام على السلام والوطيد المستقر الدائم وأن الحرب ضرورة استثنائية فقط، قال عمرو بن العاص لأرطبون الروم قائد معركة أجنادين في فلسطين: "أدعوك الى الإسلام، فإن أبيتم فالتسليم ودفع الجزية، وإن أبيتم فالحرب الحرب، إننا دعاة سلام وإسلام نجاهد من أجل الحق وإعلاء كلمة الله ". وهذا دليل واضح على أن جوهر رسالة الإسلام تحقيق السلام العام، وإظهار الرحمة العامة بجميع أبناء البشر، فاذا اضطر اتباعه الى خوض الحرب، كانواالفرسان المغاوير لاحراز النصر والقضاء على النزاع الطارئ للعودة الى أصل السلام، وتوفير الامن والطمأنينة والاستقرار قال تعالى: "وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلاعدوان إلا على الظالمين"[163]. وليس معنى السلام بداهة الاستسلام للأعداء وإنما هو سلام القوي الحذر الذي يعد العدة الكافية دائما لمجابهة الأعداء عند الاقتضاء واللزوم.

ثالثها:إن الإسلام لم يكتف بنداء السلام أو بمبدأ التعايش السلمي نظريا، وإنما صنعه فعليا، ودعا الى أكثر من ذلك وهو التسامح والتعايش الودي الذي يتجاوز المسالمة إلى تحقيق المودة والمحبة والمشاركة في العيش الحر الكريم والعدل التام في المعاملة والقضاء قال الله تعالى:"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"[164] رابعها: أن المسلمين أصحاب رسالة إلاهية يريدون تبليغها للناس، والتوصل الى قبولها، وإغراء الناس بمبادئها وأحكامها وتشريعاتها لأنها رسالة سلام وحق، وهم أيضا يلتزمون بأخلاق الإسلام على أنها جزء من العقيدة والدين، فلا تجد فيهم غلظة أو وحشية أو قسوة تخرجهم عن الحدود الإنسانية، وهم أرحم الناس بالناس، و لا يلجؤون الى شئ من الأذى والضرر إلا بقدر الحاجة أوالضرورة، ولا يرضون بالظلم ولا يظلمون الناس.

---

161. القرآن الكريم، سورة النساء- 1، 2.
162. القرآن الكريم، سورة الاسراء :70،
163.القرآن الكريم، سورة البقرة -193

164. القرآن الكريم، سورة الممتحنة -8

لكل هذه الاعتبارات والمبادئ تكون إلى السلام قريبة وسريعة الحصول، في نهايتها وتكون بوسائل متعددة اهمها ما يأتي:

1- اعتناق الاسلام: تنتهي الحرب بالدخول في عقيدة الإسلام لأنه الهدف المنشود من حوار المسلمين مع غيرهم، ولأنه يجسد القيم العليا الصالحة للمجتمعات الرشيدة، ويكون الاتحاد في الملة سببا لإقرار سلم دائم قائم على مصالح مشتركة، وغايات واحدة.

2. المعاهدة أو الصلح: تنتهي الحرب اما بالهدنة أوالصلح الموقت، أو بالصلح المؤبد الذي يكون في ظله المسلمون وغيرهم في تعايش سلمي دائم. كما تنتهي الحرب بأمان (تأمين)، صادر من قائد أو رئيس مسلم لأهل حصن أواقليم أو بلد. ويمكن أيضا عقد معاهدات مع غير المسلمين لإقامة علاقات حسن جوار أوعلاقات ودية أو تجارية أولأغراض أخرى، أومن أجل قبول فكرة حياد شعب أو دولة، وتكون هذه المعاهدات سبيلا لتوطيد السلم والأمن بين الدولتين. ويفضل المسلمون إقامة السلام على أساس المعاهدات.

ولهذا فان انضمام الدول الإسلامية إلى ميثاق الأمم المتحدة القائم على إقرار وحماية مبدأ السلام العالمي يعد متفقا مع شريعة الإسلام، ومنسجما مع تطلعاته في توفير المناخ الملائم لتوطيد أركان السلم العالمي، والتمكين من نشر الدعوة الاسلامية في ارجاء العالم بالطرق السلمية.

3-الفتح: أي ضم بلد آخر بالقوة، وهذا كان سائدا في الماضي، وهو قائم على اساس مبدأ المعاملة بالمثل وبه تنتهي الحرب.

4- ترك القتال أو الانسحاب الجماعي للجيش : حين وجود مصلحة في الانصراف عن الحرب أو لتفادي ضرر أكبر حال الاستمرار في المعركة. حينئذ تنتهي الحرب من الناحية الفعلية، وربما يكون إنهاء الحرب بعدئذ سببا للدخول في مفاوضات لعقد معاهدات سلمية وأمنية.

5- التحكيم: وهو اتفاق بين طرفين أو اكثر على إحالة النزاع بينهم الى طرف آخر ليحكم فيه. وهو سبيل لانهاء الحرب وتوفير السلم.

أما تسوية القتال بين بلدين أوشعبين مسلمين، فيكون بالطرق السلمية والمساعي الحميدة والمصالحة، بالرغم من شدة مخالفة وجود هذه الحرب لقواعد السلام. قال الله تعالى:"إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون"[165] واذا كان التدخل الحربي الجماعي المحايد من الأمة الإسلامية سببا ناجحا لانهاء الحرب بين فئتين إسلاميتين، فلا مانع منه شرعا، لقوله تعالى:" وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين"[166]

وبناء عليه تكون صورة المجتمع الدولي في التصور الإسلامي قائمة على أساس وجود شعوب إسلامية، وشعوب محايدة، وشعوب معاهدة، وإذا وجدت المعاهدة فلا يجوز إعلان الحرب على المعاهدين إلا إذا صدر منهم ما يدل على نقضها، أوخيفت خيانتهم، فينبذ العهد إليهم ويحاربون إذا توفرت القوة اللازمة، من أجل العودة إلى قاعدة السلام، وهذا ما يسمى بمبدأ نبذ العهد، تحرزا من الغدر والخيانة عملا بالقاعدة الإسلامية:(وفاء بعهد من غير غدر خير من غدر بغدر) قال الله تعالى: وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أي متساوين في العلم بنقض العهد[167].

وانقسام العالم في تقدير الفقه الإسلامي إلى دار إسلام ودار حرب انقسام موقت ناشيء من نشوب الحرب كما هومعروف الآن من وجود منطقة حياد، فاذا ما انتهت الحرب، عاد الناس الى الأصل العام وهو كون الدنيا دارا واحدة تجمع جميع الأمم والشعوب كما قرر ذلك الإمام الشافعي (رح).

6- عهود الأمان: انفرد النظام الإسلامي بين النظم العالمية بما يعرف بعقود أو عهود الأمان التي يمكن التوصل بها الى إنهاء الحرب وإقرار السلام مع الآخرين ولو بوساطة الأفراد العاديين. فللمسلم أوالمسلمة منح أحد أفراد العدو أمانا من أجل الدخول الى ديار الإسلام، أو للسماح له بسماع القرآن الكريم والتعرف على حقيقة دعوة الإسلام، أو للتجارة والسياحة، أو للمفاوضة وتبليغ السفارات وخطابات الحكام

165.القرآن الكريم، سورة الحجرات-10

166.القرآن الكريم، سورة الحجرات- 9
167.القرآن الكريم، سورة الانفال- 58

(السفراء والقناصل) أولإنهاء الحرب ورفع راية الإسلام في ناحية معينة من نواحي الحصار الحربي في قلعة أوحصن.

والأمان: هو عقد يفيد ترك القتل والقتال مع الحربيين، أي الأعداء وهو نوعان: خاص وعام.

والأمان الخاص: هو ما يكون للواحد أو لعدد قليل محصور، كعشرة، فما دون. والأمان العام: هو ما يكون لجماعة كثيرة غير محدودة، كأهل ولاية أواقليم، ولايعقده إلا الإمام الحاكم أو نائبه كالهدنة، أوالصلح الموقت، لأنه من المصالح العامة التي لايستطيع تقديرها غير ولي الأمر.

ونظام الأمان يحقق كل أنواع الحماية والرعاية والاطمئنان لشخص العدو وأمواله وأسرته في بلاد الإسلام، أو لعقد الصلات والمبادلات التجارية وغيرها، فهو من الدعائم الأصلية لإقرار السلام. وقد كان إعطاء الأمان لوفود المسيحية في الحروب الصليبية نتيجة التسامح الإسلامي يعد أساسا للمعاملات الدولية.

وبالأمان كفل الإسلام للرسل والسفراء مختلف أنواع الحماية والحصانة الشخصية والمالية، واضفى عليهم كل صنوف التكريم والإعزاز، حتى وان أساؤوا للمسلمين، ليتمكنوا من أداء مهامهم السلمية، ويحققوا الخير والتعاون والسلام بين دول العالم وفئاته وشعوبه.

ومن أدلة مشروعية الأمان قوله تعالى: " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه "[168].

قال ابن كثير في تفسير الآية: والغرض أن من قدم من دارالحرب الى دار الإسلام في أداء رسالة أوتجارة أوطلب صلح أومهادنة، أوحمل جزية أو نحوذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أونائبه أمان، أعطي أمانا ما دام مترددا في دار الإسلام، وحتى يرجع الى داره ومأمنه.

وقال القرطبي أيضا: وقد كان المشركون يطلبون لقاء الرسول صلى الله عليه سلم لأجل الكلام في الصلح وغيره من مصالح دنياهم.

168.القرآن الكريم، سورة التوبة-6.

وجاء في السنة النبوية ما يدل صراحة على صحة الأمان من كل مسلم مكلف مختار، وهو قوله ﷺ: "ذمة المسلمين واحدة، فمن اخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل منه صرف ولاعدل"[169].

ولم يتعرض النبي ﷺ بأي أذى أو إساءة لمبعوثي مسيلمة الكذاب، وقال (لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فمضت السنة أن الرسل لا تقتل. وقال النبي ﷺ بعد ان رد مبعوث قريش إليهم الذي جاء مسلما تنفيذ بنود صلح الحديبية: (اني لا أخيس بالعهد، ولا احبس البرود) أي لا انقض العهد، ولا امنع الرسل من العودة لبلادهم.وأجمع فقهاء الاسلام، على حماية الرسل والسفراء، وأجازوا للمبعوث السياسي أن يدخل بلاد المسلمين من دون حاجة إلى عقد أمان ولم يجيزوا الغدر برسل العدو وسفرائه، حتى ولو قتل الأعداء رهائن المسلمين والموجودين عندهم فلا تقتل رسلهم، لقول بعض الصحابة كما تقدم:(وفاء بعهد من غير غدر خير من غدر بغدر).

وتطبيقا لهذا المبدأ السامي كان العرب في الحروب الصليبية يرعون حرمة الرسل الأوروبيين، بخلاف ما كان يلقاه رسل المسلمين لدى الغربيين الصليبيين من إهانة وإيذاء.[170]

169.اللفظ للبخاري

170.مقتبسة من مقالة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي نشرت في "الوعي الإسلامي" الصادرة من دولة الكويت- العدد 307 بتاريخ رجب 1410هج

الفضيلة والسماحة في حروبه ﷺ

أما الفضيلة والسماحة في حروبه ﷺ فتبدو بصورة كاملة كما بدأت في جميع معاملاته ومعاشراته لحياته اليومية مع آله وأصحابه وحتى مع أعدائه عليه السلام فإن الرسول ﷺ لم يكن محاربا يحارب مع االناس في كل شئ يسير بل كان رجلا اجتماعيا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وهاديا إلى صراط مستقيم، فلم يكن في السرايا التي بعث بها النبي ﷺ قتال، بل كانت نتيجتها سلما وما كان الفريقان يلتقيان الا ليفترقا في سلام، وان لم يكن ذلك دائما، الا ما كان من رمية رماها سعد بن أبي وقاص في سرية عبيدة بن الحارث، ومع أنه لم يكن في هذه السرايا قتل ولا قتال كانت ذات فائدة، لأنها أعلمت قريشا أن الإسلام صارت له قوة فأما أن يسارعوا إليه، ولا يكونوا آخر الناس، وأما أن يسارع القصاص، والرد على ما سبقوا به من الاعتداء، أو من جهة أخرى يشعرون بأن قوة الإسلام ستنقذ المؤمنين الذين لايزالون يفتنونهم عن دينهم الذي ارتضوه والفتنة أشد من القتل، كما ذكر الله تعالى سيضايقهم بالحق، كما ضايقوه بباطلهم.

وكما يضايقون أصحابه من المستضعفين في ديارهم، وذلك بمصادرة أموالهم كفاء لما أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم.

فكانت هذه السرايا الأولى في السنة الأولى من الهجرة إشعارا لهم بأن الإسلام قد أمده الله تعالى بالقوة ليرهبوه ماداموا لم يسالموه، بل إنهم لم يرغبوه وكانت كذلك غزوات النبي ﷺ الأولى في الابواء والعشيرة، وغطفان وبدر الأولى، فقد كانت خالية من القتل والقتال، بل كانت لهذا الإشعار.

حتى إذا شعرت قريش بهذه القوة المؤمنة، وكونوا جيشا كثيفا، وساروا به ولم يسبق عيرا، وبدا أنهم يرومون الحرب، اذ استعدوا لها، وأرادوا الاعتداء بها، كان القتال، لأنهم كانوا المهاجمين، وما كان محمد ﷺ لينظر حتى يغزوا المدينة بجيشهم، بل لا بد أن يلقاهم، لأنه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا، كما قال بطل الجهاد علي كرم الله وجهه الذي رباه محمد ﷺ، وعلمه الحكمة وفصل الخطاب.

ولكن قد يسأل سائل لماذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا؟ ونقول في الجواب عن ذلك انه لم يكن بدعا من الرسل في ذلك، لأن موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل حارب، ودعا بني اسرائيل الى الحرب ولكنهم ارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين، وقالوا وحال الذلة والجبن تدفعهم:

" قالوا يموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قعدون"[171].

والمذكور في التوراة التي بأيديهم أن موسى عليه السلام حارب ملوكا، واخترق بجيشه ديارهم. وداود عليه السلام حارب وقاتل. وكذلك ابنه سليمان عليه السلام.

واذا كان عيسى عليه السلام لم يقاتل، فلأنه ما شرع له القتال، وكأنه كان تمهيدا للبعث المحمدي اذ أن بينهما مدة ليست كبيرة، تبلغ نحو ستمائة سنة أو تزيد. وان رسالة محمد ﷺ كانت للناس كافة، للأحمر والأسود والأبيض، فكانت لا بد أن تجتاز الأقطار، وتصل الدعوة قوية الى الأمصار، وان ذلك لا يكون الا بالاستعداد للقتال، إذ أن العالم كان محكوما بالملوك الغاشمين، والرؤساء الظالمين.

وإن شريعة محمد ﷺ جاءت بمبادئ هي ضد الحكام، وقد قاتلوه عليها، فكان لا بد أن تكون قوة مانعة من الظلم دافعة بالحق، فكان لا بد من الحرب أو الاستعداد لها.

وان الناس لا يستقيم أمرهم إذا لم تكن للمبادئ العادلة قوة تحميها بالحق من غير اعتداء، وفضيلة الإسلام ليست فضيلة خانعة ضعيفة مستسلمة، ولكنها فضيلة قوية دافعة للشر، حاملة على الخير، فليس فيه من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، وانما فيه: " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين"[172] .

وفيه العفو والصبر، إذ يقول سبحانه وتعالى:

" فاعفوا وأصفحوا حتى يأتى الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير"[173]. والعفو لا يكون إلا بعد أن يكون الأمر للإسلام فلا عفو إلا عن مقدرة، ويكون عزا ولا يكون استسلاما، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (ما زاد عبد بعفو إلا عزا) وأمر سبحانه وتعالى بالصبر، فقال سبحانه:

171.القرآن الكريم، سورة المائدة-24

172.القرآن الكريم، سورة البقرة -194

173.القرآن الكريم، سورة البقرة-109

"وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهم خير للصبرين".[174]

وان الصبر يوجب ألا يندفع الجيش الى القتال، بل يصابر، عسى أن يكون الصلح، ألاتخرج السيوف من أغمادهما كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان يوصي جيوشه بذلك.

وان الصفح الجميل عمن آذوا أهل الإيمان يحتاج الى صبر وقوة نفس، فليس الصبر فقط في لقاء الأعداء، إنما يكون في ذلك، وفي عظم النفس عن شهوة الانتقام. وان حرب النبي ﷺ، كما سنرى حربا فاضلة فيها الرفق وفيها الفضيلة، وإن اشتجرت السيوف، وتلاقى الناس بالحتوف. فهى تعلم الناس كيف تكون الفضيلة، والسيوف تقطر دما، وكيف تكون المرحمة في الحرب، وهي في أصلها أمر مكروه في ذاته، فإذا دخلتها الرحمة، فانها تكون كالنسيم العليل في الحر اللافح، وكالظل في الحرور، وقبل أن نتكلم في غزوات النبي ﷺ نتكلم في بيان الفضيلة فيها، وانا نأخذ ذلك من أوامر القرآن الكريم للمجاهدين وعمل النبي ﷺ في سيرها وفي انتهائها، وفي وصاياه عليه الصلاة والسلام لجيوشه. وقد كان أصحابه من بعده يتبعونها ويحكمونها غير منحرفين عنها.

ان الرحمة من الفضائل الإنسانية العالية، ورحمة الإسلام ليست انفعالا نفسيا وقتيا، ولا شفقة أو رأفة شخصية تكون على الفاضل والآثم، والبر والفاجر، بل ان رحمة الإسلام هي الرحمة بالعامة، وقد تكون الحرب رحمة بالعامة، بل إنها يجب أن تكون كذلك ما دامت حربا فاضلة، كما تلونا من قبل قوله تعالى: " ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"[175]. فالشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه ليست من الرحمة في شيء، لأنها تخفي في ثناياها قسوة على المظلوم، ولذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : " من لا يرحم لا يرحم ".

فالحرب الاسلامية شرعتها الرحمة، وأظلتها الرحمة، وأنهتها الرحمة واذا كان من الرحمة بجسم الانسان أن تقطع بعض الأجزاء المثوفة، حتى لا نفسد الجسم، فان

174.القرآن الكريم، سورة النحل -26.

175.القرآن الكريم، سورة البقرة-251

من الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد، لأنها تثوف الجماعة، وأن يرد الاعتداء بقطع عناصره لسلامة الناس، وأن يعيشوا آمنين، وكلمة الحق تسري بينهم ولا محاجزات تحول دون النطق بها.

ولنتكلم في حرب النبي ﷺ، معتمدين على كتاب الله تعالى، وعلى السنة النبوية.

فالباعث عليها كما نص القرآن الكريم رد الاعتداء على المسلمين، فقد قال تعالى:

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين "[176].

" وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظلمين"[177].

وبين سبحانه أنه يعامل المعتدون بمثل اعتدائهم وقال تعالى:

" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين"[178].

وذلك بعد قوله تعالى: " الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمت قصاص"[179].
ونجد من هذه النصوص أن ابتداء الاعتداء كان من المشركين، وأنه كان لاعتداء المشركين على الحرية الدينية وفتنة المؤمنين في عقائدهم ليحملوهم على تركها، واننا إذا أمرنا برد الاعتداء بمثله، طلب منا مع ذلك طلبان جليان آخران وهما النهي عن الاعتداء، فنهينا عن الاعتداء، والاعتداء بأن نقاتل من لم يبدأنا بالقتال، ولم يمنع الدعوة الإسلامية من السير في طريقها، والطلب الثاني أمرنا بالتقوى، وهو التزام الفضيلة، فان كانوا يعتدون على الأعراض لا نجاريهم، وان كانوا يمثلون بالقتلى لا نمثل بقتلاهم كما سنبين إن شاء الله تعالى.

لقد علمنا مما قصصنا من السيرة الطاهرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكث يدعو الى الإسلام ثلاث عشرة سنة توالى فيها الأذى على المؤمنين، وخصوصا

176.القرآن الكريم، سورة البقرة-190.
177.القرآن الكريم، سورة البقرة 193
178.القرآن الكريم، سورة البقرة-194
179.القرآن الكريم، سورة البقرة-194

ضعفاءهم، ولم يسلم من أذاهم إلا من يكون ذا بطش يخشى بطشه كعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب، ومع ذلك لم يسلموا من الأذى تماما، بل كانت سلامتهم نسبية.

ورسول الله ﷺ لم يسلم من أذاهم، حتى رموا عليه وهو ساجد سلى جزور، وحتى لقد هموا بقتله عليه الصلاه والسلام، ليلة الهجرة، وقد هاجر النبي ﷺ، وهاجر من كان عنده قدرة على الهجرة.

ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم الذي ارتضوا، والمشركون سادرون في غيهم، وترك النبي ﷺ ضعفاء، لا قدرة عندهم على الهجرة، وهم يعذبون أشد العذاب، فهل من مقتضى الرحمة أن يترك هؤلاء يعذبون، ويلقى بهم في المحابس، انه لا بد من أن يذوق الذين يؤذونهم وبال أمرهم.

وننتهي من هذا ومن النصوص السابقة الى أن الباعث على الحرب دفع الاعتداء، ومنع الأذى المستمر وعقوبة الظالمين وتأمين الدعوة الاسلامية حتى لا تكون فتنة في الدين، ويتبع الناس الدليل، ولا يتبعوا الحكام الذين يرهقونهم ويسومونهم الخسف والهوان.

هذا هو أمر القتال في شبه الجزيرة العربية، الذي ابتدأ في قريش، ثم عم أجزاءها عندما اجتمعت القبائل على حربه في غزوة الأحزاب، أوغزوة الخندق، وأرادوا اقتلاع الإسلام من قصبته في المدينة الظاهرة، فنزل قوله تعالى:

"وقاتلوا المشركين كافة كما يقتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين"[180]

أما بالنسبة لغير من كانوا في الجزيرة العربية، فقد أرسل الى الملوك والرؤساء الكتب على أيدي رسل من حكماء أصحابه أرسل الى هرقل، والى عظيم مصر، والى كسرى وغيرهم من الملوك. وبعض أمراء البلاد النائية من البلاد العربية.

ولكن لم يجب الى الإسلام من غير العرب أحد، ومنهم من أساء الرد، ومنهم من أحسن في الإجابة، ولكن لم يجب داعي الله تعالى الى الإسلام، ومنهم من لم يرد بالقول، ورد بالعمل، وأعلن برده العداء كالمشركين فكسرى هم بأن يرسل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يقتله، وهرقل قتل واليه من أسلم من أهل الشام، ولذلك

180.القرآن الكريم، سورة التوبة-36

اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام، فكانت غزوة مؤتة، ثم غزوة تبوك، ثم وصيته بانفاذ جيش أسامة بن زيد الى الشام.

وبهذا ترى أن الباعث لحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو دفع الأذى، وتمكين الدعوة، ولم يكن ثمة اكراه على الدين، لأن الله تعالى يقول:

" لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لانفصام لها، والله سميع عليم "[181]

ولم يثبت أن النبي ﷺ أكره أحدا على الدين، بل ثبت أنه أراد بعض الأنصار أن يكره ولده على الإسلام، فنها ه النبي ﷺ عن ذلك.

وكانت تتجلى الفضيلة في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أخذ يرسل الجيوش الى الجهات النائية، فقد كان عليه السلام يأمر جيشه بالتأني قبل أن يتقدم للقتال، وكان يدعوا المؤمنين الى ألا يتمنوا القتال، لأنه امتحان القلوب وهدم الأجسام، فكان عليه السلام يقول(لا تتمنوا لقاء العدو، واذا لقيتموهم فاصبروا).

واذا تعين القتال، خيرهم بين الإسلام، أو أن يعاهدوه، ليأمن الاعتداء من جانبهم، وذلك ما يشبه في العصر الحاضر ميثاق عدم الاعتداء، أو أن يكون القتال، وأنهم اذا قبلوا العهد أمن جانبهم، وأمن أن تسير الدعوة في طريقها، وأن يخلو له وجه الناس، ويقنعهم بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن أساء فعليها.

وإننا إذ نتجه الى ذلك الوادي المقدس يسترعي انتباهنا دعاء النبي ﷺ عند القتال الذي يدل على شعوره صلى الله تعالى عليه وسلم بوحدة الإنسانية ووحدة الخالق، فهو يقول في دعائه عليه السلام (اللهم إنا عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم)، وما كان ذلك الجزء الأخير الا لأنهم معتدون على الحق، وعلى الحرية الدينية بفتنتهم الناس عن دينهم وجحود بالحق، ولقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة، فهو يقول لمعاذ بن جبل (رض) وقد أرسله الى اليمن قائدا.

181.القرآن الكريم، سورة البقرة-256

" لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فان ابوا فلا تقاتلوهم، حتى يبدؤوكم، فان بدؤوكم، فلا تقاتلوهم، حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم هل الى خير من هذا سبيل، فلأن يهدي الله على يديك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت".

ونجد من هذه الوصية أن نية السلم قائمة والجيشان قد تلاقيا، فالقائد المسلم لا يقاتلهم الا بعد أن يدعوهم الى العهد الذي يكون فيه تأمين حرية الدعوة، ثم هو لا يبدأ القتال، بل يتركهم يبدؤون القتال، وحتى بعد هذا البدء لا يقاتلهم حتى يقتلوا فعلا ثم يبين لهم العبرة في ذلك الدم الذي أراقوه ظلما وعدوانا، فان لم يعتبروا لم يبق الا السيف ليحكم بأمر الله بينه وبينهم والله خير الفاصلين.

والرفق ملازم المعركة ذاتها، كما كان في ابتدائها، ذلك أنها حرب نبوة، وليست مغالبة ولا تناحرا، ولقد قال ﷺ في وصف دعوته وحربه:(أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة)، وفي الحق ان المرحمة والملحمة متلاقيتان فما كانت الملحمة الا لأجل المرحمة، اذ الرحمة الحقيقية في هذا العالم هي في قطع الفساد ومنع الشر، واذا كانت الملحمة فقد تعينت سبيلا للمرحمة.

وانه كان يصاحب حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند ابتداء المعركة العمل على تأليف القلوب حتى وقد اشتجرت السيوف، ولذلك يوصي عليه السلام جنده وقد أرسلهم للقتال بقوله: " تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر أو وبر أن تأتوني بهم مسلمين أحب الي من أن تاتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم ".

هي حرب رفيقة تتسم بالتأليف، لا بالتقتيل، وبالمحافظة على الأنفس والرجال الا أن تكون ضرورة ملجئة، فقد كان النبي ﷺ يوصي بألا يقوم الجيش بإتلاف زرع أو قطع شجر أو قتل الضعاف من الذرية والنساء، والرجال الذين ليس لهم رأي في الحرب، ولم يشتركوا فيه بأى نوع، ومن ذلك قوله في إحدى وصاياه:

"انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا ان الله تعالى يحب المحسنين ". وفي معنى هذه الوصية وصية أخرى، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: سيروا باسم الله في سبيل الله تعالى، وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (تخونوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا.

ويقول عليه السلام لخالد بن الوليد: " لا تقتل ذرية ولا عسيفا (أي عاملا) ".

وبهذه الوصايا يتبين أن الحرب النبوية الفاضلة لا يصح أن تكون إتلافا وإفسادا، وتحللا من القيود الإنسانية، ولذلك لا يباح في القتال كل شيء، ولا يفعل ما يفعله القواد في هذه الأيام من إهلاك الحرث، والنسل، وإفساد الزرع وإلقاء السم فيه، ليتسمم الأحياء.

وان النبي ﷺ شدد في منع قتل الأطفال والشيوخ الذين لايحاربون وليس لهم رأي في الحرب، والنساء، لأن القتال الذي كان من المسلمين إنما كان لدفع الاعتداء والقصاص من المعتدين ما داموا مستمرين أوعلى نية الاعتداء، وأولئك ماكانوا يقاتلون ولا يعتدون، وليس في طاقتهم أن يقفوا محاربين الدعوة الإسلامية أن تسير في طريقها.

وقد مر النبي ﷺ على القتلى فرأى امرأة مقتولة، فقال عليه السلام ما كانت هذه لتقاتل، وأرسل الى خالد بن الوليد يأمره بألا يقتل عسيفا ولا ذرية.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يغضب اذا بلغه أن جنده قتلوا صبيانا، ولقد بلغه أن بعض الأطفال قتلهم جند المسلمين، فوقف عليه السلام يقول لجنده: ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية".

وكان عليه السلام يمنع قتل العمال، وكرر منع قتل العسفاء وهم العمال الذين يستأجرون للعمل، لأن حربه عليه السلام لم تكن لقتل الأقوياء القادرين، انما كانت لمنع اعتداء الذين يحملون السلاح، أو يدبرون الاعتداء، والعمال ليسوا كذلك، اذا لم يكن عملهم لتهيئة أسباب القتال. وكان عليه السلام ينهى عن التخريب، فكان يمنع قطع الشجر، لأنه لا ضرورة توجب قطعه الا أن يتخذه العدو مستترا له، ليجعل منه كمينا، يكمن فيه لجيش المسلمين، فما كانت حرب النبي ﷺ تسمح بالتخريب.

وليست حرب النبي ﷺ كحرب الأنذال اللؤماء الذين يضعون السيف في موضع البرء وموضع السقم، انما هي حرب الخلق القوي الذي لا يضع السيف الا حيث يكمن الداء، ويستقر، ليقتلع الشر من مكمنه، فلا يقتل الا من اعتدى وحمل السيف، أو دبر الأمر لمن يحمله.

ولذلك كانت الفضيلة هي المسيطرة في كل أدوارها في ابتدائها وسيرها، وانتهائها، وانها اذ كانت لرد الاعتداء بمثله، فهي مقيدة بالفضيلة لما ذكرنا من أن الله

تعالى أمرنا بالتقوى عند رد الاعتداء، فالمعاملة بالمثل مع التقيد بالتقوى توجب على جيش الايمان ألا ينتهك حرمات الفضيلة لأجل المعاملة بالمثل، فاذا تعارضت الفضيلة مع المعاملة بالمثل كان الواجب مراعاة الفضيلة، لأنها المبدأ الذي لا يقبل التخلف كيفما كانت الحال.

وقد يعجب بعض الناس من الفضيلة تحكم في وسط السيوف، وحيث تستباح النفوس، فانها حيث استبيحت لا يبقى شيء يحترم، ولكننا نقول انها حرب النبوة المقيدة بقانون السماء، قام بها النبي ﷺ ليعلمها للناس، فانه ما دامت الحرب في نظام الوجود الإنساني، فانه لا بد من أن تقيد بالفضيلة، وأن يتولى تعليمها خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وهو آخر صرح في نبوة السماء، وان حرب النبوة هي حرب الفضيلة التي تدفع الرذيلة دفعا، وليس من المعقول أن يكون الباعث عليها الدفاع عن الحق والفضيلة، وتنتهك الحرمات من أهلها في الميدان مجاراة الأراذل المعتدين، فاذا كان العدو منطلقا من كل القيود الخلقية فجيش الفضيلة مقيد بالفضيلة، فاذا كان العدو يهتك الأعراض ان استمكن، أو يقتل النساء والولدان والشيوخ الذين لايستطيعون حيلة، فان جيش الإسلام المؤمن لا يجاريهم لأنه مقيد بالفضيلة والخلق القوي.

واذا كان العدو يمثل بالقتلى، ويشوه أجسامهم بعد القتل، فان جيش الفضيلة لايفعل لقول القائد الأعظم المعلم الأول للحروب الفاضلة: "اياكم والمثلة ".

ولقد قتل المشركون في غزوة أحد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وحبيبه، أدنى قرابته اليه، وسيد الشهداء كما سماه النبي ﷺ ومثلوا بجسمه الطاهر، ومع منزلته منه عليه السلام لم يفكر في أن يمثل بأحد من قتلاهم فيما وجد من بعد ذلك.

واذا كان الأعداء يجيعون الأسرى، أو يقتلونهم بالعطش، فان جيش المسلمين يعد من أقرب القربات إطعام الأسير، تحقيقا لقوله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين في إيمانهم:" ويطعمون الطعام على حبه، مسكينا ويتيما وأسيرا "[182]

واذا كانت الفضيلة لا بد من احترامها في أثناء الحرب، للأمر بتقوى الله تعالى عند رد الاعتداء بمثله فمن الفضيلة المحافظة على الكرامة، بقوله تعالى:

182.القرآن الكريم، سورة الانسان-8،

"ولقد كرمنا بني آدم وحملنهم فى البر والبحر ورزقنهم من الطيبت وفضلنهم على كثيرممن خلقنا تفضيلا"[183]

فكرامة العدو محترمة ككرامة الولي على سواء وقد يعد بعض الناس ذلك أمرا غريبا، حيث كانت السيوف متشابكة، اذ أن هذا ليس وقت التكريم، بل هو وقت التقتيل، ولكن لا غرابة، فهي ليست حرب انتقام، ولكنها قمع للشر، ومنع لاستمراره، والاستمرار يتصور من مقتول.

ولذلك أمر النبي ﷺ بدفن قتلى قريش، لم يترك جثثهم نهبا لوحوش الأرض وسباع الطير، أمر عليه السلام بوضع جثث القتلى من قريش في القليب وهو بئر جافة.

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن الاجهاز على جريح، كما نهى عن تعذيب القتلى، اذ ضعفت قوة الجريح عن أن يقاوم، وذلك كله لاحترام الإنسانية، ولأن القتال ليس القصد منه الا إضعاف قوة الطغاة، ودفع الاعتداء وليس منها الانتقام.

وان المعاملة بالمثل التي تفرضها قوانين الحرب، والتي تفرض بحكم رد الاعتداء به لا يسير به المسلم الى أقصى مداه ولو انتهكت الفضيلة والكرامة الإنسانية، بل ان المسلم بأن الله تعالى مأمور بالتقوى عند رد الاعتداء، وكانت حرب النبي صلى الله عليه وسلم هي المثل السامي في تنفيذ، ذلك لأنه الذي يتعلم منه الإنسان ان حارب أخاه الإنسان، فعندئذ يكون قانون الأخلاق هو الذي يحكم لا قانون الغابة.

وكانت نهاية حرب النبي ﷺ تنتهي بأحد أمور ثلاثة:

أولها:- الموادعة–وقد كانت عهود الموادعة التي كان يبرمها النبي صلى الله عليه وسلم مرغوبا فيها منه ﷺ استجابة لقوله تعالى:

"وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم"[184].

ولقوله تعالى:

183.القرآن الكريم، سورة الاسراء-70

184.القرآن الكريم، سورة الأنفال-61

" يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين".[185] ولأن الأصل في العلاقة هو السلم، والحرب لا تكون الا اذا دفعت اليها ضرورة رد الاعتداء بمثله مع التزام الفضيلة كما ذكرنا، واذا كانت الموادعة فقد زالت ضرورة الحرب، والضرورة تقدر بقدرها.

وقد عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موادعات، كما عقد صلحا، وعقد من بعده صاحباه أبوبكر وعمر رضي الله تعالى عنهما معاهدات صلح آخذين بهدية، مقتبسين من نوره، وكلها كانت تبدو فيها الرغبة في الصلح من جانب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وما كان النبي ﷺ يدخل في الحرب الا بعد عرض الصلح، حتى تتحقق ضرورة الحرب.

وان الموادعة لا يفرضها النبي ﷺ بحكم القوة، ان كان هو الغالب، بل يفرضها بالسماحة وإدناء القلوب النافرة.

ولعل أوضح الأمثال في الدلالة على ذلك صلح الحديبية، فقد ذهب الى مكة ومعه جيش كثيف في عدده، قوي فى رجاله، مستعد في عدته، ليحج بيت الله الحرام، ولكن ما ان عرضت فكرة المهادنة، حتى سارع اليها وقبل من الشروط ما لا يقبله الا السمح الكريم، وفيها كما يدل ظاهرها من الاجحاف بالمسلمين ما كان لغير نبي ان يقبله، ولكنه قبله راضيا، ولنذكر الخبر فيها، كما روته الصحاح في السنة.

روى البخاري (رح) أن رسول الله ﷺ خرج في ذي القعدة من العام السادس ليحج الى بيت الله الحرام، على ألا يقاتل الا اذا منع، فلما بلغ قريشا عزمه عليه السلام، ومجيئه مع أصحابه، جمعوا له الجموع ليصدوه، ومن معه، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وقد لبس لباس الحج ونواه ومعه الجيش الكبير–جمع أصحابه، وقال:"أشيروا عليا، فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت قاصدا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فمن صدنا عنه قاتلناه فقال الرسول الأمين امضوا على بركة الله "حتى اذا أشرف على مكة قال: والله لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم إياها".

185.القرآن الكريم، سورة البقرة- 208

ولما جاءت رسلهم اليه ﷺ قال لهم:"إنا لم نجئ لقتال، ولكننا جئنا معتمرين، وان قريشا قد نهكتهم الحرب، وأخذت بهم فان شاؤوا ما رد لهم، وأخلوا بيني وبينه".

عرض عليه السلام الموادعة، وهو القوي بجيشه، وبنصر الله الذي فوق كل شيء فقبلوا المهادنة بشروط كان جلها كما يرغبون:

أولها–أن يعود ولا يحج في عامه هذا، وأن توضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأن يعتمر الرسول وأصحابه في العام المقبل.

وثانيها–أن من قدم المدينة من قريش مجتازا الى الشام فهو آمن على دمه وماله.

وثالثها–أن من أتى محمدا من مكة مسلما بغير اذن وليه رده عليهم.

ورابعها–أن من جاء ممن مع محمد مرتدا عن دينه لم يردد اليه.

هذه كلها شروط كلها كتبت برغبة قريش.

وهناك شرط واحد لمصلحة الدعوة الاسلامية، وهي غاية الغايات، وذلك الشرط أن من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو يبتغي الرزق فهو آمن على دمه وماله.

وهناك شرط سياسي لمصلحة الطرفين، وهو أن من أراد أن يدخل في عقد مع محمد دخل، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش دخل.

وربما تكلمنا عن تفصيل لهذا الكلام عليها في موضعها.

الأمر الثاني الذي تنتهي به الحرب–هو الصلح بانهاء القتال، لا بالموادعة المجردة فيه، والصلح حينئذ يكون على أساس العدالة والوفاء بكل ما يلتزم كلا الطرفين فيه من حقوق، ويكون ذلك عهدا يجب الوفاء فيه بكل الشروط الجائزة شرعا، وأن العهد الذي لايكون فيه الدخول في الاسلام تكون قبل الحرب عند التخيير بين الاسلام أو العهد أو الحرب، فيكون للحرب من أن تقع، لا أن يكون منهيا لها بعد وقوعها. أما الصلح المنهي للحرب بعد وقوعها، فيكون بإعلان الإسلام في ربوع الديار التي كان النصر فيها للمؤمنين.

والأمر الثالث الذي ينهي الحرب هو الانتصار للمؤمنين، والاستسلام من الكافرين، وهو النوع الثالث من الصلح الذي ذكرناه آنفا.

تبدو السماحة المحمدية، والرفق على أهله في الحرب النبوية عند هزيمة العدو واستسلامه، ويلاحظ أنه في حرب محمد ﷺ لم يهزم المؤمنون هزيمة فيها استسلام قط، إذ أنه لم ينتصر خصوم الإسلام انتصارا ساحقا قط في عصر النبي ﷺ والراشدين من بعده.

وأنه لما هزم المسلمون في غزوة أحد لم يستسلموا، لأن الاستسلام فيه ذلة، والإسلام دين العزة والكرامة، فلا يمكن أن يستسلم المؤمنون بقيادة محمد ﷺ بل انه عليه السلام جمع متفرق الجيش، وأراد أن يتبع به المشركين، فلما علموا هم بذلك مضوا في طريقهم قافلين، ورضوا من الغنيمة بالاياب، اذ علموا أنه مؤيد من عند الله، وأنه يجاهد في سبيله.

واذا كانت الحرب تنتهي باستسلام العدو فمحمد في حرب النبوة لا يقول مقالة الغاشمين، ويل للمغلوب بل تكون العدالة، وتكون السماحة، والرفق المحمدي.

كانت آخر حرب للنبي ﷺ مع قريش هي التي انتهت بفتح مكة للإسلام والمسلمين، وهنا يلتقي النبي ﷺ مع من آذوه، وأعنتوا أصحابه، وساموهم سوء العذاب، ومنهم من مات من شدة التعذيب، وقد هموا بقتله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكنهم كانوا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

التقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم، وبكبير حرب الشرك أبي سفيان، فنشر عليها السلام، وهو الغالب والمسيطر راية الأمان عليهم، فنادى مناديه عليه السلام: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن".

وهكذا كان انتصار النبي الرفيق الرؤوف الرحيم نشرا للأمان في ربوع مكة حول بيت الله تعالى الحرام، ولما التقى بالملأ من قريش، قال لهم: "ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم ما قاله أخي يوسف:لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء" أي حرب تنتهي بهذه السماحة وذلك الرفق غير حرب النبوة التي قام بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وللناس في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

وامل أبلغ ما يدل على أن الحرب النبوية التي دافع بها ﷺ عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله هي حرب لتعليم الناس أن

الخلق الكريم يلازمها، وأن الفضيلة تظلها في كل أدوارها–هو معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للأسرى، لقد كان رفيقا بالأسرى لا يهدر آدميتهم، ولا يعرف تاريخ الإنسانية محاربا كان رفيقا بأسراه كمحمد ﷺ، فقد كان ﷺ يوصي بالأسرى، ولما أسر من أسر في غزوة بدر، فقد نزلوا في بيوت الأنصار، وكأنهم في ضيافة لا في أسر، وذلك لقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:"استوصوا بالأسرى خيرا" ولما ذا كان النبي ﷺ يوصي بالأسرى، ويبالغ في الايصاء بهم؟ والجواب عن ذلك أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين فيكون الاعتداء عليه متوقعا وغليظا لشدة الغيظ، وانبعاث الرغبة في الانتقام، كما فعل الأوربيون والأمريكيون فيمن سموهم مجرمي الحرب، فالنبي ﷺ وهو يضرب الأمثال السامية في تلك الحرب النبوية منع ايذاء الأسرى وأمر باكرامهم منعا لتلك الروح الانتقامية الغليظة.

وقد أخذ المسلمون في أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة، حتى ان الذين قد نزلوا في ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام.

وان أولئك الكرام كانوا في جهادين: أولها جهاد السيف ونيران الحرب ملتهبة، حتى اذا انطفأت كان الجهاد الثاني، وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ، فيكون منها ما لا يرضاه الله تعالى بالنسبة للمغلوبين، وخصوصا الأ سرى.

لقد تلونا فيما مضى من قولنا قوله تعالى:

"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" [186]

وان الإسلام يوجب بالنسبة للأسير أمرين:

أولهما: أنه ليس لجيش الإسلام أن يأسر حتى يثخن في الأرض بأن يثقل جيش العدو بالجراح، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال، وقد قال الله تعالى:

"ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم"[187].

186.القرآن الكريم، سورة الانسان - 8
187.القرآن الكريم، سورة الانفال67

الأمر الثاني: أن القرآن الكريم الذي كان ينفذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويبينه كما قال تعالى:

"وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون"[188].

ان هذا القرآن يذكر بالنسبة للأسرى أمرين لا ثالث لهما، وهما إما المن عليهم بإطلاق سراحهم، وإما الفداء بالمال أو الرجال فقد قال تعالى:

" فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها"[189].

وكما أشرنا: ان الفداء قد يكون بالرؤوس فيطلق من أسارى المسلمين في نظير أن يطلق المسلمون من أسرى الأعداء، وقد يكون بالمال.

واذا كان الأسير فقيرا ولا مال له، فانه يتعين تسريحه، ويكون ذلك من الصفح الجميل الذي أمر الله تعالى نبيه به بقوله:"فاصفح الصفح الجميل"، ومن أخذ الأمور بالعفو، كما قال تعالى:"خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجهلين "[190]

وأعظم العبادات الجهاد في سبيل الله تعالى، واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم المؤمنين الصلاة، وقال:"صلوا كما رأيتموني أصلي" فقد علمهم الحرب الفاضلة أيضا، بل علم الإنسانية كلها الحرب الفاضلة، ولسان حاله عليه السلام يقول:"حاربوا في سبيل الفضيلة كما رأيتموني أحارب" فحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أدت مقصدها، وهو جعل كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولا تزال المثل السامية التي صورتها الحرب المحمدية قائمة تهدي وترشد العالمين، ولقد عد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى درجات الزهادة والعبادة، الجهاد، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم:"الجهاد سنام الدين".

وقد منع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرهبانية، وقال لا رهبانية في الإسلام، وبين أن رهبانية الإسلام هي الجهاد، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم:" في كل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد"، وقد علل ذلك الإمام السرخسي بأن فيه

188.القرآن الكريم، سورة النحل– 44

189.القرآن الكريم، سورة محمد-3

190.القرآن الكريم، سورة الاعراف-199

العشرة مع الناس، والتفرغ عن عمل الدنيا والاشتغال بما فيه سنام الدين " وفيه أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وهو صفة هذه الأمة.

وانه يتشابه المجاهد مع الراهب في ثلاثة أمور، ويختلفان في أمر.

أما الأمور المتشابهة فهي:

أولا–اعتزال الناس جملة، والخروج عن الحياة التي يحياها الناس لأنفسهم آكلين شاربين متمتعين بحلاوة الحياة وما فيها.

وثانيا–أن الراهب يعتزل النساء، والمجاهد الذي نال شرف الجهاد ومعناه يعتزل النساء وينقطع عن الأولاد في مدة الجهاد، وهم فلذات كبده.

وثالثا–أن كليهما قد قدم نفسه لله تعالى–الراهب بالعبادة ليسموا في نظره الى الروحانية التي تقربه من الله تعالى في زعمه، والمجاهد قد قدم نفسه فعلا لله تعالى ليحمي الحق الذي أمر الله بنصرته، ونرى أن المشابهة قائمة، وان اختلف القصد في كليهما.

ومن هنا كان موضع الافتراق، فالراهب يعتزل الناس لأجل نفسه وعبادته الانفرادية، أما المجاهد، فيعتزل الناس، ليحمي الناس، وينفذ أمر ربه، فالأول عبادته في دائرة وجوده الشخصي لا تعدوه والثاني عبادته في دائرة النفع العام، والأول لاتخلوعبادته من أثره، والثاني عبادته كلها إيثار.

وان الإسلام منع الرهبنة، لأنها فرار من الحياة ومتاعبها، ولذلك تعتبر القوانين الأوروبية الرهبان في حكم الأموات، والرهبنة موتا اختياريا، والإسلام لا يريد للمتعبد هذا الموت ولا ذلك الفرار، ولكنه يريد المؤمن نافعا للناس، حيا في وسط الأحياء، حاميا لهم من المضار، جالبا لهم المنافع، اذ ليست العبادات الإسلامية سلبية، بل هي إيجابية– هي المشاركة في رفعة النوع الإنساني، ولذلك يعد كل نفع للأحياء صدقة، فقد قال عليه السلام: "مامن مسلم يغرس غرسا، أويزرع زرعا، فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كتب له به صدقة"وانه ليس معنى ذلك أن الروحانية في الإسلام لا وجود لها، بل ان لها المقام الأول ففي الصوم والصلاة والحج، روحانية بل كلها روحاني، وفي الاعتكاف روحانية، ولكن روحانية الإسلام ليست انقطاعا عن الحياة والأحياء، بل هي مع ما فيها من سمو نفسي، وتجرد من الجسم وأهوائه وشهواته، هي لتحسين العلاقات

الإنسانية، وأن يكون المؤمن مألفا يألف الناس، ويألفونه.هذه كلمة تقدمنا بها عند الكلام في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرد بها قول الذين يتقولون الأقاويل في حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، ويزعمون أن الحروب والدمار ليست من أعمال النبيين، وهي فرية افتروها، فانه مادام الإنسان ابن الإنسان، فانه لا بد من مغالبة.

ومن وقت أن امتنع ابليس عن السجود لآدم استكبارا أو استعلاء، والمعركة بين الخير والشر قائمة، والعداوة مستحكمة بين الرذيلة تعتدي، والفضيلة تدفع، ومن وقت أن نزل آدم وذريته الى الأرض، وابليس الذي قال لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين، من هذا الوقت وقد تحقق قوله تعالى:

"قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى"[191].

والنزاع بين الخير والشر قائم لا مفر منه. وليس من الفضيلة أن يترك الشر يرتع، ولا يدفع، ولذلك قال تعالى:

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذوفضل على العلمين "[192].

وان أولئك الذين يعترضون على قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يتصورون الحرب الا مغالبة بشرية كما تتغالب الوحوش على فريسة تأكلها، أو على غابة تحتلها، ولا يتصورون لفرط ماديتهم أن الحرب تكون لإعلاء الحق وخفض الباطل، وكذلك كانت حروب النبيين موسى وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء، وما كان قتالهم شرها الى الدماء، فمعاذ الله وتنزهت ذاته الكريمة فلا يرسل الا ملكا كريما.

وننتهي من هذا الى تقرير هذه الحقائق التي بدت من البحث واضحة نيرة.

الحقيقة الأولى: أن حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، كانت أمرا لا بد منه، ليقيم الحق ويخفض الباطل، وما كانت رسالته تدعو الى استخذاء الخير أمام الشر،

191.القرآن الكريم، سورة الاعراف—123

192.القرآن الكريم، سورة البقرة—251

وما كانت دعوتهم لتسير في مسارها الا اذا أزالت الحواجز التي كانت تحاجز دونها، ليتم التبليغ، والناس بعد ذلك يختارون الهداية أو يستمرون على الغواية:

"إنا أنزلنا عليك الكتب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل"[193].

الحقيقة الثانية: أن حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت حربا فاضلة مثالية تعلم الإنسان أنه قد يكون محاربا وهو فاضل، وأن الإنسانية تحترم، والسيوف مشتجرة.

الحقيقة الثالثة: أن حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يتبعونه في هديه، ويتخذونه أسوة في حربه وفي سلمه هي عبادة، لأن رفع الحق والحرب لرفعه هو في ذاته عبادة، فليست عبادة الإسلام عكوفا في الصوامع من غير عمل نافع، بل كل عمل نافع فيه عبادة اذا نواها المؤمن"انما الأعمال بالنيات، وانما لكل امرىء ما نوى".

وكان لا بد قبل أن نخوض في حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأدوارها، والمعارك التى خاضها– من أن نسبق بالقول في أوصاف حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فان ذكر الحرب قد يفزع، ويرهب، فكان من الضروري أن نعرف القارئين بأنها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظفر، والناب، وأنها حرب نبوة تدفع اليها الفضائل الإنسانية، ويظلها الحق والخلق الكريم في الباعث عليها، وفي ابتدائها، وفي سيرها، وفي الانتهاء منها، وفي معاملة المغلوبين، ليتميز الخبيث من الطيب، ولكيلا يتطاول ملحد في دين الله على مقام الرسالة، ومكان الهداية، ويقع في القول بغير حق ويفتري بالباطل، فنضع الحقائق بين يديه، فان شاء استنار بها، وان طمس الله تعالى على بصيرته فما له من هاد، ويكون كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وبعد هذه التقدمة نقول ان حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذت أدوارا ثلاثة:

193.القرآن الكريم، سورة الزمر—41

الدور الأول: توجه عليه الصلاة والسلام للتصدي لمتاجر قريش ليشعرهم بقوة الحق، وليحملهم على الفتنة في الدين، وليدركوا نور الحق، بعد أن تبين نوره قويا وهاجا، وليعلموا أنه لا ملجأ لهم من الله الا اليه.

والدورالثاني: تلقيه لمن يهاجمون المدينة لينالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه، ظانين أنهم بذلك يقتلعون الإسلام من جذوره ولينالوا منه نيلا، قد ابتدؤوه في مكة، وحاولوا أن يقطعوا شجرته في المدينة، حاسبين أنه قد استغلظ سوقها.

وفي هذا الدور كانت بدر الكبرى، وأحد، والخندق أو الأحزاب، ومعها كان أجلاء بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة.

الدور الثالث: كان في الخروج الى العرب الذين قاتلوه كافة، فكان حقا عليه أن يقاتلهم كافة، كما أمره الله تعالى بقوله:

"وقتلوا المشركين كافة كما يقتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين"[194]

وفي تلك الغزوات كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدعو الى الإسلام، لأنه عليه السلام كان يخيرهم بين الإسلام، ويبين حقيقته وأركانه، وبين القتال، واذا اختاروا السلم كان، وان اختاروا الحرب، وهزموا، وجدوا في رفق المعاملة ولين القوي وعطفه مالم يحتسبوا، فيألفونه، ويدخل الإيمان في قلوبهم.

وانه في هذا الدور قد أخذت الحرب تنتقل من جزيرة العرب الى خارجها، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ يدعو الملوك ورؤساء الدول الى الإسلام، أو أن يفتحوا الطريق أمام الدعوة الإسلامية، فما آمن منهم الا النجاشي ملك الحبشة، ومنهم من لم يجب، ومنهم من أساء في الرد، ومنهم من أجاب جوابا رقيقا ولكنه لم يؤمن.

وحيث ان ملك الروم قد قتلت جيوشه من أسلم من أهل الشام، فتعرض المسلمون لفتنة دينية كالتي كانت في مكة، وأمر الله تعالى بالقتال لأجلها، فقال تعالى:

194.القرآن الكريم، سورة التوبة–36

"وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظلمين" [195]

ولذلك كانت غزوة مؤتة، وغزوة تبوك من بعدها.

وقد تجمع اليهود الذين أجلاهم من المدينة في خيبر، لينقضوا على المدينة، فكان لا بد أن يساورهم، قبل أن يساوروا المدينة، وهكذا.[196]

الرسول القائد ﷺ

ومما لا شك فيه أن الرسول ﷺ هو القائد الأعظم قائد الركب الإنساني جمعاء وقد كتب الشيخ صفي الرحمن المباركفوري(رح) في كتابه الشهير "الرحيق المختوم" فيقول: "إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها ... لايمكن لنا إلا أن نقول: إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأشدهم وأعمقهم فراسة وتيقظا، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة الذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل في أى معركة من المعارك التي خاضها لغلطة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال. بل أثبت في كل ذلك أن له نوعا آخر من القيادة غير ما عرفتها، وتعرف الدنيا في القواد. ولم يقع ما وقع في أحد وحنين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش– في حنين– أومن جهة معصيتهم أوامره، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية. وقد تجلت عبقريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين فقد ثبت مجابها للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم، كما فعل في أحد، أويغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصارا، كما في حنين– مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

---

195. القرآن الكريم، سورة البقرة–193

196. مقتبسة من"خاتم النبيين" للشيخ أبو زهرة (القسم الثاني)

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة، أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخلية السبيل، لنشر الدعوة كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق، ويضمر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين، حتى تفصى من كثير من مشاكل اللاجئين اللذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهيأ السلاح والكراع والعدة و النفقات. حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله.

أشداء على الكفار رحماء بينهم

إن رسول الله ﷺ كان من أشد الناس قوة بدنية وكان جرئيا بطلا لا يخاف الا الله فكان ومن معه من أصحابه ﷺ أشداء على الكفار رحماء بينهم، وقد وصف الله تعالى عن حبيبه ﷺ وعن أصحابه في شدة بأسهم للكفار وأعداء الإسلام والرحمة والعطف والحنون فيما بينهم فقال تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما.[197]

ولا غرو أن هذه الصفات لا توجد في زعماء العالم وأصحابه مثلما توجد في محمد ﷺ وأصحابه، ولا يوجد في الدنيا زعيم مثل محمد ﷺ كما لا يوجد في الدنيا أصحاب لزعيم من زعماء العالم مثل ما وجد محمد أصحابه ﷺ.

197.القرآن الكريم سورة الفتح-29

وقد شاهدنا أصحاب الرسول ﷺ أشد حبا له عليه السلام وقد أظهروا نوادرالحب والولاء له ﷺ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان يوم معركة بدر الحاسمة. ويوم أحد ويوم الأحزاب ويوم الحديبيه ويوم الفتح وغيرها من المعارك فيما بين الحق والباطل وبين الإسلام والكفر لا يوجد نظيرها في العالم كله ولا سيما يوم أحد حيث ان أصحاب الرسول ﷺ كانوا يدافعون عن رسول الله ﷺ أمام السهوم والسنان ولا يبالون بالموت لأن الموت في الحقيقة هو الشهادة في سبيل الله فهذه هى روائع من الحب والفداء للنبي ﷺ فإنه لو كان يصيب في جسد أحدهم سهم يتحمل ولا يتحمل أبدا بأن تصيب في رجل محمد ﷺ شوكة، هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ وقد وصف الله عنهم في كتابه الكريم كما وصف الرسول ﷺ فيهم فسوف ترون أيها القراء فيما بعد على عنوان خاص بإذن الله سبحانه وتعالى.

الرسول ﷺ ينشئ الجيل الإسلامي الجديد

نزل محمد ﷺ من غار حراء ومعه نور من الله وكتاب مبين" إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق" ويتجه محمد إلى أودية مكة المكرمة وجبالها، بهذا النور الساطع اللامع لينذر أم القرى ومن حولها، ويتجه محمد بهذا النور المبارك إلى يثرب وإلى جبالها وحراتها، يتجه إلى الصحراء القاحلة الجرداء وإلى جزيرة العرب كلها، بل وإلى الدنيا كلها فلم يلفت نظره على أى طرف من أطراف العالم وإلى أى أفق من آفاقه الا ينظره مملوء من ظلام الشرك والجهل، فقام محمد ﷺ بمهمة الدعوة إلى الله ومسئوليات ضخمة تجاه الأمة الأخيرة وهى تبليغ الرسالة السماوية وتعليمهم أكبروأعظم فلسفات الحياة الإنسانية بأن يكون كل إنسان موحدا لله سبحانه وتعالى.

نعم! وهذا هو محمد ﷺ يقوم أمام تحديات الجاهلية وظلامها أمام وثنية الجاهلية، أمام عبادة للنفس والهوى، وقام محمد! أمام هذه التحديات وهو وحيد فريد لا يصاحبه أحد إلا المرأة المؤمنة الصابرة الصادقة الوفية ويسميها التاريخ بخديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، هذه المرأة هى مأوى محمد ﷺ ومأوى الإسلام الأول، وهذه هي كلمتها التاريخية "كلا! والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" [198]

198.رواه البخاري

نعم وهذا هو محمد ﷺ يقوم وحيدا فيغير مجرى التاريخ للحياة الجاهلية وطلاسمها وأخرج في مدرسته مثل أبي بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم(رض) ممن سماهم التاريخ بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم و الخلفاء الأربعة ولم يحصلوا على شهادات بكالوريوس ولا الماجستير ولا الدكتوراة، ولا هم مهندسون ولاهم أطباء ولاهم وزراء ولا رؤساء ولا ولا، ولكنهم كانوا حصلوا على شهادة واحدة وهى شهادة"صحبة محمد ﷺ "وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ماذا كانت صفاتهم وماذا كان أشغالهم الا أن كانوا يحاربون فيما بينهم لأمر تافه، في أيام الجاهلية وكانوا يهتكون حرمات النساء كانوا يبيعون كرامات الإنسانية كما كانوا يشربون الخمر وفوق ذلك كله أنهم كانوا يئدون البنات، بل و يئدون الإنسانية، قال الله تعالى: وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت، وقال تعالى: وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون.[199]

فرباهم محمد ﷺ في ظلال ذلك النور الالهي فانتقلوا من عبدة الأصنام والأوثان إلى عبدة الله وحده، ومن ظلام الشرك والضلالة إلى نور الايمان والهداية ومن خيانة الحقوق الإنسانية إلى حفظ الحقوق الإنسانية وحفظ حقوق النساء فصاروا أفضل هذه الأمة أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، وهؤلاء هم أصحاب محمد ﷺ.

وقد خرج أصحاب محمد ﷺ إلى أنحاء العالم كله حاملين مسئولياتهم وهى تبليغ الرسالة الإلهية، تبليغ الرسالة المحمدية أخذوها من محمد ﷺ يوم عرفة حيث قال عليه السلام في حجة الوداع! فليبلغ الشاهد منكم الغائب، الا هل بلغت! اللهم فاشهد، فخرجوا من بعد إلى العالم كله حتى وصلوا إلى ربوع الصين وحتى وصلوا إلى المناطق الساحلية لبنغلاديش.

هؤلاء هم أصحاب محمد ﷺ وهم حملة راية الدين إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقد تزينوا بأخلاق محمد ﷺ وتخلقوا بها، وقد ضحوا بتضحيات منقطعة النظير، ضحوا بأنفسهم وأموالهم لإعلاء كلمة الله ولإقامة دين الله فبشرهم محمد ﷺ بالجنة فقال أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة و عثمان في الجنة وعلي في الجنة وسعد في الجنة.

199. القرآن الكريم، سورة النحل-59

وقد وصف الله عن أصحاب محمد ﷺ بنزول أيات كثيرة في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، وقال تعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه و قال تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا. وقال تعالى: أولئك هم الصادقون، أولئك هم المفلحون، أولئك هم المؤمنون حقا، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون، ألا إن حزب الله هم المفلحون، وفيهم نزل! ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة.

وقال تعالى: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما، وقال تعالى! أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ....

وغيرها من الآيات القرآنية فمحمد ﷺ أنشأ الجيل الإسلامي الجديد وكل فرد من أفراد هذا الجيل قضوا حياتهم حسبما أمر الله ورسوله وهذه هى من أهم نقط النجاح لحياة محمد ﷺ وقد شاهدت الدنيا من نوادر الحب والولاء يوم أحد لأصحابه له وكان أبو طلحة يوم أحد يسور نفسه بين يدى رسول الله عليه السلام ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو ويقول! بأبي أنت وأمي لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحرى دون نحرك، وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله ﷺ على الموت، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين.

وهذا هو محمد، رجل وحيد قام وحده لإصلاح الدين، فقال لقريش سادة العرب اتركي هذه السيادة ! فالناس كلهم سواء، لا فضل الا بالتقوى، وقال للعرب المشركين حطموا هذه الأصنام، فإنها لا تضر ولا تنفع، واعبدوا الله الواحد الأحد، وصرخ بكسرى وقيصر أن دعا هذا الجبروت الظالم وهذه الربوبية الكاذبة، فما كان بعض البشر أرباب بعض واتبعاني أجعل منكما عبدين لله صالحين.

فثارت به قريش، وقام عليه العرب وعاداه الملكان كسرى وقيصر، وأعلنت أقدس حرب وأعجبها: الحرب بين محمد وبين العالم كله، الحرب التي انتصر فيها محمد على الدنيا كلها.

وهل تعرفون ماذا صنع سيدنا محمد ﷺ! وجد العرب قبائل وبطونا، لكل قبيلة عالم ولكل بطن دين، آلهتهم شتى، وأربابهم أصنام، همهم سيف يجرد،أو جمل ينحر، يأكل

بعضهم بعضا، فبكر تحارب تغلب، وعبس وذبيان، واليمن ومضر، لهم ملوك فى مشارف الشام وأطراف العراق، ولكن ملوكهم خول لكسرى وقيصر، يقتلون إخوانهم في العروبة في سبيل الأجنبي.

وجد في مكة، وهي حاضرة العرب ودارة قريش بضعة عشر يقرؤون ويكتبون، وسائر أهلها أميون، ووجد علماء العرب هم الكهان والشعراء، أولئك يسجعون فيعرفون بما لا يعرفون، وهؤلاء يسبون ويمدحون ويذمون!

أفبهؤلاء يصلح العالم الفاسد؟ إنه لموقف يؤيس العظيم، ولكن محمدا لا يعرف اليأس أبدا، ولا يعرفه أتباع محمد!

إنه يريد أن ينشئ من الأمة المشركة المتفرقة الجاهلية أمة واحدة مؤمنة عالمية، فليصنع كما يصنع البناء: يضع الحجر على الحجر فيكون جدارا. وكذلك فعل محمد صلى الله عليه وسلم: بنى أمة صغيرة من ثلاثة، من رجل وامرأة وصبي، من أبي بكر وخديجة وعلي، فكانت نواة هذه الأمة العظيمة التي ملأت–بعد–الأرض، وكان أسلوبا يخلق احتذاؤه بكل مصلح.

ثم صار المسلمون عشرة ثم أربعين، فخرجوا يعلنون الإسلام بمظاهرة لم تكن عظيمة بعددها ولا بأعلامها وهتافها، ولكنها عظيمة بغايتها ومعناها، عظيمة بأثرها، عظيمة بمن مشى فيها: محمد وأبوبكر وعمر وعلي وحمزة، أربعون لولا محمد ﷺ لعاشوا ولماتوا منكرين مجهولين، فلما لامسوه وأخذوا من نوره وسرت فيهم روح من عظمته صاروا من أعلام البشر، وصارت أسماؤهم منارا للسالكين. فلما صاروا ثلاث مئة خاضوا المعركة الأولى في الدفاع عن الحق، معركة بدر. فلما بلغوا عشرة آلاف فتحوا مكة وطهروا الجزيرة العربية. فلما بلغوا مئة ألف فتحوا الأرض!

فتحوا الأرض، فلما انقادت لهم فتحوا القلوب بالعدل، والعقول بالعلم، فما عرفت هذه الدنيا أنبل منهم ولا أكرم، ولا أرأف ولا أرحم، ولا أرقى ولا أعلم، ولا أجل ولا أعظم!

فقد ظهرت في أصحابه ﷺ الأسوة الحسنة، والأخلاق النبيلة فعلينا أن نتبع على آثارهم. وفقنا الله تعالى والناس أجمعين.

الباب الثالث

الفصل الأول

30- أخلاق الرسول ﷺ مع أصحابه

31- مع حاطب بن أبي بلتعة رضـ.

32- و مع الثلاثة الذين خلفوا

33- أخلاقه ﷺ في غزوة بدر الكبرى

34-أخلاقه ﷺ في غزوة أحد

35- أخلاقه ﷺ في غزوة الأحزاب

36- أخلاقه ﷺ في غزوة بني قريظة

الفصل الثاني

37- المقارنة بين الأخلاق النبوية وأخلاق زعماء العالم

38- العفو عن الأعداء الألداء

39- أبو سفيان

40- هند بنت عتبة

41- وحشي

42- عكرمة بن أبي جهل

43- هبار بن الأسود

44- عمير بن وهب

45- صفوان بن أمية

الفصل الأول

أخلاق الرسول ﷺ مع أصحابه

وكان الرسول ﷺ في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل من أصحابه: علىّ ذبحها وقال آخر: علىّ سلخها، وقال آخر علىّ طبخها، فقال ﷺ : و علىّ جمع الحطب، فقالوا: نحن نكفيك. فقال! قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه، وقام ﷺ وجمع الحطب.

مع حاطب بن أبي بلتعة (رض)

إنه هو حاطب بن أبي بلتعة رضـ لم يكن في قلبه مثقال ذرة من الكفر والنفاق بل كان مؤمنا حقا صادقا، الذي أخلص لله الدين وكان أحد من أجلة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وكان ممن شهد يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، في معركة بدر الحاسمة هذا هو حاطب بن أبي بلتعة رضـ ولكنه كان من الإنسان وكان فيه ضعف إنساني فقد غادر مكة مهاجرا إلى أرض يثرب(إلى المدينة المنورة) مع سيد الرسل ﷺ فارًّا بإيمانه ونفسه من أيدي الكفار والمشركين تاركا زوجه وأولاده في مكة، فما أن قرب يوم الفتح جاش في قلبه عطف وحنون الأبوة على أولاده وأرسل إلى اقاربه من المشركين في مكة رسالة وفعل ما فعل.

وقد قرأتم أيها الأخ القاري قصة حاطب بن أبي بلتعة رضـ في"فتح مكة" عفى الله عنه ورضي الله عنه وعفا النبي ﷺ عنه فظهر من هذه القصة عفو الرسول ﷺ قلما يوجد نظيره في زعماء العالم مع أصحابه.

ومع الثلاثة الذين خلفوا

وكانت غزوة تبوك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد طابت الثمار والظلال واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجه الذي يريد، وكان الزمن زمن عسرة الناس وجدب البلاد، وتعلل المنافقون بعلل، وكرهوا الخروج مع رسول الله ﷺ اشفاقا من العدو القوي القاهر، وفرارا من الحر الشديد، زهادة في الجهاد وشكا في الحق، في ذلك يقول الله تعالى!

" فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا، لوكانوا يفقهون".[200]

وكانت هذه الغزوة– لظروفها الخاصة بها– اختبارا شديدا من الله تعالى- امتاز به المؤمنون من غيرهم. كما هو دأبه تعالى فى مثل هذه المواطن، حيث يقول: "ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب "[201] فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنا صادقا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم: دعوه، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسا. نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر. وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس، فأما المنافقون– وهم بضعة وثمانون رجلا فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار.وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين– وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فما كذبوا على رسول الله ﷺ بل اختاروا الصدق لأنهم كانوا مؤمنين حقا فأظهر الرسول ﷺ عليهم أخلاقه النبيلة، وما شتمهم وما تكلم عليهم بل أمر أصحابه أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة إلى أن أتانا أمرالله تعالى! وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة وتغير لهم الناس– وهم بالمدينة.

200.القرآن الكريم، سورة التوبة-81
201.القرآن الكريم، سورة آل عمران-179

أخلاقه ﷺ في غزوة بدر الكبرى

ومما لا شك فيه أن أخلاق الرسول ﷺ وتدابيره السياسية والقيادية والعسكرية والحربية في غزوة بدر الكبرى قد ظهرت بتمامها ونتيجة لذلك قد أكرم الله تعالى المسلمين بالفتح المبين.

وإن غزوة بدر الكبرى هى أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة كما أنها من أهم الغزوات في تاريخ الإسلام، وهى النقطة المهمة لانطلاق الدعوة الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها وإن هذه الغزوة هى غزوة حاسمة فاصلة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين الهداية والضلالة، بين النور والظلمات، وقد نصرالله تعالى المسلمين بنصرة عظيمة بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وهزم الأعداء شر هزيمة.

ولم تشاهد الدنيا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان مثل هذه الهزيمة وهى هزيمة الكفار والمشركين جمعاء مع أن كان المسلمون قليل العَدد والعُدد، فكانت معركة بدر التي تقرر مصيرالأمة الإسلامية ومصيرالدعوة الإسلامية، وعليها يتوقف مصير الإنسانية المعنوي.

فكل ما حدث من فتوح وانتصارات وكل ما قام من دول وحكومات، مدين للفتح المبين في ميدان بدر، ولذلك سمى الله تعالى هذه المعركة ب"يوم الفرقان" فقال**!** " إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان "[202].

وإن هذه الغزوة ليست هى غزوة في ساحة بدر فحسب**!** بل إنها بداية الفتوح الإسلامية فكانت هناك سؤال بقاء الإسلام والمسلمين في العالم لعبادة الله وحده.

وهذا هو السبب أن الرسول ﷺ عدل الصفوف ورجع إلى العريش، فدخله، ومعه أبو بكر، ورسول الله ﷺ يكثر الابتهال، والتضرع، والدعاء، وقد علم أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم فالنتيجة معلومة واضحة، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوي كثير العدد، ولما رأى الكفتين: كفة المسلمين وكفة المشركين، غير متكافئتين، وضع صنجة في كفة المسلمين، رجحت بها رجحانا ظاهرا، فاستغاث بالله الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه (وما النصر إلا من عند الله) وشفع للكتيبة المؤمنة القليلة العدد، الفقيرة في العدد، فقال:"اللهم **!**إن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعدها في الأرض"

202.القرآن الكريم، سورة الفرقان-41

وجعل يهتف بربه عزوجل ويقول:" اللهم ! أنجزني ما وعدتني، اللهم نصرك" ويرفع يديه إلى السماء، حتى سقط الرداء عن منكبيه، وجعل أبوبكر– رضي الله عنه–يسليه، ويشفق عليه من كثرة الابتهال.

فقد ظهرت في هذه المناشدة والشفاعة والدعاء والتضرع إلى الله من أخلاقه الحربية الرائعة وهى الاستسلام الكامل والتوكل الكامل على الله تعالى لا على العدد والعدد ولم يكن رسول الله ﷺ متكبرا مثل جبابرة العالم، وهذه هى سر من أسرار الفوز والنجاح بالنصر والفتح في معركة بدر الحاسمة.

وقد وزع رسول الله ﷺ القيادة وقسم جيشه إلى كتيبتين...

1- كتيبة المهاجرين، وأعطى علمها علي بن أبي طالب

2- كتيبة الأنصار، وأعطى علمها سعد بن معاذ

وعقد رسول الله ﷺ مجلسا عسكريا استشاريا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأى مع عامة جيشه وقادته فقام أبوبكر وقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين فقال ﷺ " أشيروا علي أيها الناس"وإنما يريد الأنصار وفطن ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: أجل، فقال: سعد بن معاذ (رض) لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فأظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، وأقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا نتبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، ووالله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وقد استخبر رسول الله ﷺ من الغلامين قبضهما أصحاب الرسول ﷺ فقال لهما الرسول ﷺ أخبراني عن قريش، قالا هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى فقال لهما كم القوم قالا كثير. قال ما عدتهم قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما تسعا ويوما عشرا.

فقال رسول الله ﷺ القوم فيما بين تسع مائة إلى الألف وهذه هى نماذج حية لتدابيره الحربية الحكيمة الرشيدة.

ومن أروع ما ظهرت أخلاقه عليه السلام في الحروب وهى معاملاته مع أسارى بدر السبعين الذين أسروا في أيدى المسلمين فلم تشاهد الدنيا مثل هذه القصة المنقطعة النظير في أمم العالم وزعمائه وقادته ورؤسائه.

وأوصى رسول الله ﷺ بالأسرى، فقال:"استوصوا بهم خيرا"يقول أبو عزيز هذا:" كنت في رهط من الأنصار، حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي، فأردها، فيردها علي، ما يمسها [203].

وكان من الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وابن عمه عقيل بن أبي طالب [204]، وأبو العاص بن الربيع، زوج بنت النبي ﷺ وكان حكم الإسلام عاما، لا يميز بين قريب وبعيد.

وعفا رسول الله ﷺ عن الأسارى، وقبل منهم الفداء، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان من لا شئ له من عليه رسول الله ﷺ فأطلقه، وبعث قريش في فداء الأسارى وأطلق سراحهم.

وكان من بين الأسرى، من لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة [205]، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة [206]، وكان زيد بن ثابت ممن تعلم بهذا الطريق، وكان في ذلك من تقدير العلم وتشجيع القراءة والكتابة ما لا يحتاج إلى توضيح.

أخلاقه ﷺ في أحد

ففي غزوة أحد ظهرت أخلاقه عليه السلام بعد ان دارت الدائرة على المسلمين بسبب اجتهاد بعض الرماة الخاطئة فلم يمتثلوا أمر الرسول ﷺ وهم موقنون بالفتح وقالوا: يا قوم! الغنيمة الغنيمة! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يسمعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فاخذوا الثغر وأخلو ظهور المسلمن إلى الخيل وأصيب أصحاب لواء المشركين. حتى ما يدنو منه أحد من القوم، فأتاهم المشركون من خلفهم، وصرخ صارخ: ألا! إن محمدا قد قتل، فتراجع المسلمون وكر المشركون كرّة، وانتهزوا

203.المصدر السابق ج2، ص475
204.سيرة ابن هشام ، ق1 ، ص3
205.مسند أحمد ج1 ، ص247
206.طبقات ابن سعد ج2،ص14

الفرصة، وكان يوم بلاء وتمحيص، وخلص العدو إلى رسول الله ﷺ واصابته الحجارة، حتى وقع لشقه، وأصيبت رباعيته، وشج في رأسه، وجرحت شفته (ص) وجعل الدم يسيل على وجهه، فيمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟.

ولايعلم المسلمون بمكانه، فأخذ علي بن أبى طالب رضى الله عنه– بيد رسول الله(ص) ورفعه طلحة بن عبيد الله، حتى استوى قائما، ومص مالك بن سنان الدم عن وجهه (ص) وابتلعه.

وظهرت أخلاقه الحربية ﷺ في أحد بعد أن كان جريحا وبعد أن صرخ صارخ إن محمدا قد قتل، ففي تلك الظروف القاسية الرهيبة ثبت الرسول ﷺ أقدامه وأقدام من معه من أصحابه ﷺ.

أخلاقه ﷺ في غزوة الأحزاب

وقد شاهدنا في التاريخ الإسلامي أن الرسول ﷺ يوم الأحزاب استشار أهل الشورى من الصحابة رضد على موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، فاتفقوا على قرار قدمه الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضد قال سلمان يا رسول الله ! إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب من قبل.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق اربعين ذراعا وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا. ففى البخارى عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ:

اللهم لا عيش إلى عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار[207]

وعن أنس: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم. فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

207.صحيح البخارى باب غزوة الخندق 2/ 588

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا.[208]

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى رغبوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد بها صوته بآخرها، وفي رواية:

إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا.[209]

فشاهدنا في غزوة الأحزاب أخلاق رسول الله ﷺ بأنه لم يكن آمرا يأمر أصحابه افعل ولا تفعل بل كان منهم يحفر الخندق مع أصحابه وينقل من تراب الخندق.

وهذا هو أخلاقه ﷺ التي هى مثال حي للأمة الإسلامية جمعاء إلى يوم القيامة.

أخلاقه ﷺ في غزوة بني قريظة

وإليكم أيها الأخ القاري أقدم مثالا حيا لأخلاقه ﷺ وذلك في غزوة بني قريظة لما نزلوا من الحصن وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن سلمة الأنصارى ـ وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة، لم يخرج معهم للجرح الذى كان أصاب أكحله في معركة الأحزاب. فأركب حمارا، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يقولون وهم كنفيه: يا سعد أجمل في مواليك فأحسن فيهم، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئا، فلما أكثروا

208.صحيح البخارى / 397، 2/ 588

209.نفس المصدر 2/ 589

عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة: قوموا إلى سيدكم فلما أنزلوه قالوا: يا سعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمى نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. وقال: وعلى المسلمين؟ قالوا نعم. قال: وعلى من ههنا؟- وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له وتعظيما–قال: نعم وعلى. قال: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بنى قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمس مائة سيف، وألفين من الرماح وثلاث مائة درع وخمس مائة ترس وجحفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث إمرأة من بنى النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة. ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالا، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعى لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل– وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة فضربت أعناقهم.

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم- وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حي بن أخطب. ففي غزوة بني قريظة سأل رسول الله ﷺ عن يهود بني قريظة فقال: الا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى ! قال: فذاك إلى سعد بن معاذ: قالوا: قد رضينا.

ففي كل غزوة من غزوات الرسول ﷺ يوجد من خير نماذج من أخلاق سيد رجال التاريخ ﷺ وقلما يوجد في آخرين من زعماء العالم، ففي رسول الله ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

الفصل الثاني

المقارنة بين الأخلاق النبوية وأخلاق زعماء العالم

وإنه لم يمكن المقارنة فيما بين أخلاق النبي ﷺ وبين أخلاق زعماء العالم قط، بل وتختلف أخلاقه ﷺ من أخلاق زعماء العالم اختلافا واضحا كاختلاف الصورة والحقيقة حيث ان أخلاق محمد ﷺ فيها الحقيقة والروح ولايوجد مثل أخلاقه ﷺ في أي زعيم من زعماء العالم ولا في رئيس من الرؤساء ولا في وزير من الوزراء، ولا في ملك من المللوك ولا في سلطان من سلاطين العالم، لا في ماضيه ولا في حاضره ولا في مستقبله عليه السلام، واليكم أيها الأخ القاري أقدم عدة أمثال حية في هذا المجال وهى كالتالية .....

أولا: إن الله تعالى وصف بنفسه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فقال وإنك لعلى خلق عظيم، وما نزل مثل هذه الآية القرآنية في أحد من العالمين.

ثانيا: عن أنس بن مالك(رضى الله عنه) قال! "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم – عشرسنين فما قال لي أف قط، وما قال لي لشئ صنعته، لم صنعته، ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا إلى آخر هذا الحديث

وعن عائشة رضـ قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيأ قط الا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادما ولا امرأة.

هذا هو خلق رسول الله ﷺ وفي جانب آخر أنه قيل في زعيم من زعماء العالم إما هو نابوليون بونابرت أو هو هتلر زعيم عالمي ألماني ونجم الحرب العالمية الثانية بأنه رفث برجله في بطن زوجه بأشد ما يرفث و هى حامل فماتت ومات جنينها معا.

ثالثا: أن الرسول ﷺ إذا ودع جيشا قال:" أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة ولا تحرقوا نخلا، ولا تقطعوا شجرا، ولا تهدموا بناء "[210]

210.رواه الواقدي عن زيد بن أرقم في غزوة مؤته

وفي جانب آخر أن زعماء العالم وعلماءهم اخترعوا الأسلحة الجديدة الهدامة من القنابل الذرية والنووية والهيدروجينية والنتروجينية والقنابل الجرثومة والقاذفات والألغام والمقاتلات وهذه الأسلحة لا لقتل الوحوش بل إنما هى لقتل الإنسان تخرب العمران وتدمر البنيان ويهلك الحرث والنسل بل ويهلك مدنية كما شاهدنا في الحرب العالمية الثانية لما ألقى أمريكا قنبلتين الذرتيين على ناجاساكى وهيروشيما، وانتهت الحرب بهلاك مدينتين كبيرتين في يابان ودمارهما، وإحراقها، ياللهول!

رابعا: أن الرسول ﷺ فتح العالم كله بقوة الإيمان والإخلاص وفتح العالم وغلبه بسلاح الحب والولاء بالعطف والحنان، بالرأفة والرحمة، بالود والمحبة.

وفي جانب آخر أن هؤلاء الزعماء ما اكرموا الا مخافة شرهم وقد ألقوا عليهم الريق من أفواههم لما صنعوا ما صنعوا من الظلم والاضطهاد والهمجية البربرية على الإنسانية فهم أعداء الدنيا وأعداء الإنسانية جمعاء، وشيمتهم القتل والغارة والبغض والعدوان والظلم والاستبداد واستعمار دولة إثر أخرى والتاريخ الإنساني شاهد على ذلك، فهم أشر الناس في دنيا الله تعالى.

خامسا:أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان خاشعا لله متواضعا وكان أجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألينهم أريكة واكرمهم عشيرة وكان حنونا ودودا،تجلت فيه العواطف الإنسانية والمشاعر اللطيفة في أسمى مظاهرها وأجملها وكان خيرالناس لأهله.

وفي جانب آخر أن زعماء العالم وقادة الناس وعظماء البشر معظهم من المتكبرين والجبابرة أضيق الناس صدرا وأشد الناس لهجة مملوءة قلوبهم بالحقد والحسد والعداوة والبغضاء والأنانية.

سادسا: أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحارب مع الأعداء متوكلا على الله لاعلى العدد والعدد ويحارب ومن معه من أصحابه عليه السلام بقوة الإيمان والإخلاص والصدق والصبر والأمانة والمصابرة والمثابرة والثبات والسداد، واليقين الكامل على النصرة من الله تعالى وفي جانب آخر أن معظم زعماء العالم لا يؤمنون بالله فليس لديهم إيمان وإخلاص وصدق وصبر وأمانة وليس لهم يقين على نصرة الله.

سابعا:أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان رقيق القلب، سريع الدمع يرق للضعفاء ويرحم الحيوانات والدواب ويوصي بالرفق بها،يروي عنه شداد بن أوس رضـ

فيقول! قال رسول الله صلى الله عليه سلم: إن الله كتب الإحسان على كل شئ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته[211]

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها ؟[212]

وقد أوصى أصحابه بالإحسان في علف الدابة وسقيها وعدم إرهاقها وتكليفها مالا تطيق، وعدم اتخاذها غرضا، ونوه بما في إزالة الكربة عن الحيوانات وإراحتهم من الأجر والثواب والقرب عند الله. روي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفمه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يارسول الله! وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر[213]

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: عذبت امرأة في هرة لم تطعمها، ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض[214]

وعن سهل بن عمرو(وقيل سهل بن الربيع بن عمرو) قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ! فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[215].

وعن عبد الله بن جعفر– رضي الله عنهما – قال: دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته[216]، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا

211.رواه مسلم في باب " الأمر بإحسان الذبح " كتاب الذبائح
212.رواه الطبراني والحاكم ، وقال صحيح على شرط البخاري
213.رواه البخاري في كتاب المساقاة ، باب " فضل سقي الماء " ومسلم في باب " فضل سقي البهائم
214.وهي هوام الأرض وحشراتها ، ذكر ه النبووي ، رواه مسلم

215.رواه أبوداود في باب " مايؤمر به من القيام على الدواب "
216.أي سنامه

الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال: هذا لي يا رسول الله، قال:أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه يشكو إلى أنك تجيعه وتدئبه[217].

وروى أبو هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: إذا سافرتم في الخصب، أعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم بالجدب، فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق، فإنها طريق الدواب ومأوى الهوام بالليل[218].

وعن ابن مسعود– رضي الله عنه– قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد حرقناها، قال: من حرق هذه؟ فقلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار[219].

وفي جانب آخر أن زعماء العالم لا يبالون بعذاب الدواب والحيوانات بل ولا يرحمون على اسراء المسلمين ويعذبونهم أشد العذاب ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب وتقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم من مسلمى العالم. في القدس، في فلسطين المحتلة منذ نصف قرن، و في الشيشان المسلمة في البوسنة والهرسك في السودان، في الصومال، في كشمير في أفغانستان في العراق في سوريا في أركان بورما ولا سيما في"سجن غوانتانامو" بكيوبا وفي سجن"أبوغريب" وهم يعذبون أسراء المسلمين من أشد ما يعذب الناس ناسا" وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيزالحميد"، نعم! الإنسانية هناك مطرودة. وأين كرامة الإنسانية ؟ وأين أصوات الحقوق الإنسانية ؟ وأين قادة الحقوق الإنسانية؟ وأين مسئولوالمنظمات والحقوق الإنسانية ؟ وأين الأخلاق النبوية.

217.رواه أبو داود في باب " ما يؤمر به من القيام على الدواب "
218.رواه مسلم في باب " مراعاة مصلحة الدواب "
219.رواه أبوداود في كتاب الجهاد ، باب " كراهية حرق العدو بالنار "

العفو عن الأعداء الألداء

ومن أهم وأعظم ما ذكر من أخلاقه ﷺ أنه عفا عن أعدائه الألداء مثل أبي سفيان بن حرب وزوجته هند بنت عتبة و عكرمة بن أبي جهل ووحشي قاتل عم الرسول عليه السلام، وصفوان بن أمية وغيرهم من الذين كانوا أشد عداوة للإسلام والمسلمين فغلب على قلوبهم بل غلب على الدنيا كلها وفتح العالم كله بالحب والولاء، بالمودة والرحمة، بالعفو والصفح، بالعطاء والسخاء،بالعطف والحنان لابالسيف والسنان ولا بالقنابل الذرية والنووية والهيدروجينية والنتروجينية والكيماوية ولابالدبابات الغاشمة ولا بالطائرات المقاتلات الهاجمة ولا برصاصات البنادقة. وإليكم أيها القاري الفاضل نبذة عن أحوالهم مقتبسة من كتاب "الرسالة المحمدية " للشيخ العلامة السيد سليمان الندوي(رح)

أبو سفيان بن حرب (رض)

وقد علمتم أبا سفيان ومكانته من مشركي قريش، ونشاطه في مقاومة الإسلام حتى لم يدع النبي ﷺ يقر قراره ويطمئن باله في المدينة، وهو الذي زحف بالجيوش وعبّأ المشركين في بدر وأحد والخندق وكان قائدهم في معظم الحروب التي قامت بين المسلمين ومشركي العرب وكم من مسلمٍ قتل، وجريحٍ جرح في تلك المعارك، لكن أبا سفيان هذا مع كل ما تقدم منه جاء إلى النبي ﷺ مع عمه العباس قبل فتح مكة ولو أنه قتلهُ لكان بذلك معذوراً لكنه – وهو الذي بعثه رحمةً للعالمين– وقد وسعت رحمتهُ أبا سفيان فشمله بعفوه، ولم يكتفِ بالعفو حتى أكرمه وأعزّه ونادى في الناس يوم فتح مكة (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

هند بنت عتبة (رض)

وعرفتم هنداً زوج أبي سفيان في الحروب، وهي التي كانت مع لداتها من نساء المشركين تزجر وتحرض على القتال وتخطب في غزوة أحد، وهي التي مثلت بعم النبي ﷺ حمزة، فلما رأى النبي عمه حمزة بعد الحرب وقد مثل به حزن لذلك المنظر المؤلم، ومع كل هذا فقد أتته هند يوم الفتح متنقبةً فلم يتعرض لها ولم يسألها عما فعلت، بل عفا عنها وصفح، فلما رأت هذا العفو النبيل اكبرتهُ ولم تتمالك أن صاحت قائلةً: يا

محمد، لم يكن أهل خباء أبغض إليّ من أهل خبائك قبل اليوم، وأنا اليوم ليس أهل خباء أحب إلي من أهل خبائك.

وحشي(رض)

وبعد فتح الطائف خرج وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه هارباً يلتمس مكاناً آخر فاختبأ به، فلما أظل سلطان الإسلام هذا المخبأ الذي لجأ إليه وحشي قال له قائلٌ: إنك لتعلم ما نعلم من أمر محمد ﷺ، إنك لن تجد لنفسك مأمناً إلا عنده. فحضره خائفاً، فلما وقع عليه نظر النبي ﷺ غض عنه بصره وتذكر في تلك اللحظة عمه وقتله بيد هذا الرجل، فذرفت الدموع من عينيه الشريفتين، وها هو القاتل أمامه ولو أراد أن يقتصّ منه لكان ذلك حقاً وعدلاً، لكنه عفا عنه واكتفى بأن صرفهُ قائلاً:(إليك عني ! فإني إذا رأيتك تذكرت عمي حمزة وشهادته).

عكرمة بن أبي جهل (رض)

وهذا عكرمة وأبوه أبو جهلٍ كانا أعدى الأعداء للإسلام والمسلمين ولرسول الله خاصّةً، فأبو جهل آذى النبي الكريم أذىً لم يؤذه أحد مثلهُ وابنه عكرمة قاتل المسلمين فلما فتح الله مكة لرسوله خاف على نفسه مما فعله هو وأهل بيته بالنبي ﷺ والمسلمين، ففر ناجياً بنفسه إلى اليمن، وكانت زوجه قد أسلمت من قبل وعرفت الرسول حق المعرفة، فذهبت بنفسها إلى اليمن وربطت على قلب زوجها وهدأت روعه ورجعت به على المدينة، فلما بلغ النبي ﷺ قدومه سارع إليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال لعكرمة بن أبي جهل وهو فرحٌ مسرورٌ:(مرحباً بالراكب المهاجر) وهل تعلمون بمن يرحب رسول الله ﷺ، ومن هو هذا القادم الذي فرح بقدومه حتى سقط عن منكبه رداؤه، وشمله بعفوه وصفحهِ؟ إن هذا كله لرجل سبق منه قبل إسلامه أن قاتل المسلمين وآذاهم، بل هو ابن الذي ألقى على الرسول ﷺ سلأ جزور، والذي همَّ أن يهجم عليه وهو يصلي في المسجد الحرام، والذي همّ أن يخنقه بالرداء، والذي أشار في دار الندوة بقتل حامل هذه الرسالةِ الإلهية إلى الإنسانيةِ والذي أوقد نار الحرب بساحة بدرٍ وكاد للإسلام المكايد ولم يقبل الصلح. وهذا ابن ذلك العدو الألد، ولم يكن هذا الولد قد اعتزل أباه بل شاركهُ في جميع فعلاته. فلما قدم على النبي ﷺ وهو في أوج قوته هشَّ له وبشَّ ورحَّب به واستقبلهُ بوجهٍ طلقٍ وصدرٍ رحب.

هبار بن الأسود (رض)

وهبار بن الأسود هو الذي كان في الحقيقة قاتل زينب بنت الرسول ﷺ وله فعلات أخرى وجرائم شتى وقد خالف المسلمين أشد الخلاف، فلما فتح الله مكة لنبيه أهدر ﷺ دمه فأراد هبار أن يهرب إلى فارس، ثم عدل عن ذلك وبدا له أن يحضر مجلس الرسول ﷺ، فلما جاءه قال: يا رسول الله، كنت هممت أن أفر إلى بلاد الفرس، لكني تذكرت عفوك العامَّ وصفحك الشامل، فجئتك معترفاً بجميعِ ما بلغك من ذنوبي. فلما سمع النبي ﷺ اعترافه شمله بعفوه الذي وسع أعداء الله جميعاً وفتح له باب رحمتهِ الذي ما زال مفتوحاً للجميع.

عمير بن وهب(رض)

وعمير بن وهب تآمر على قتل النبي ﷺ مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر، فخرج إلى المدينة يترصد النبي ﷺ ومعه سيف مسموم، فوقع أسيراً بأيدي المسلمين وثبتت عليه جرائمه، فخلى النبي سبيله ولم يمسسه بسوء.

صفوان بن أمية(رض)

وكان صفوان بن أمية لما تآمر مع عمير بن وهب على حياة النبي وحرّضه عميراً على إتمام هذه الجريمة تعهد لعمير بأن يعول عيالهُ ويقضي عنه ديونه لو أنه هلك في هذه المغامرة، فلما فتح الله مكة للنبي ﷺ فر صفوان هارباً من مكة إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن، فجاء عمير إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، فأعطاه النبي ﷺ الأمان لصفوان فطلب عمير من النبي ﷺ أمارة على أمان صفوان فأعطاه عمامته، فلما لقي عمير صفوان وألح عليه بالرجوع أبدى له الخوف على نفسه فذكره عمير بما كان من النبي ﷺ لما وقع في أسر المسلمين وحدثه بما قبل عليه النبي ﷺ من كرم النفس وسعة الصدر وسجاحة الخلق وعظيم العفو، فانقاد له صفوان وذهب إلى المدينة، فلما حضر مجلس النبي ﷺ قال له: بلغني أنك قد أعطيتني الأمان، فهل هذا حقٌّ فأجابه ﷺ نعم. فقال للنبي ﷺ: لست داخلاً بيتك حتى تمهلني شهرين، فأجابه: لقد أمهلتك اربعة أشهرٍ ولم تنقض تلك المدة حتى صلح حال صفوان وتغير قلبه ودخل في الإسلام.

الباب الرابع

الفصل الأول

46- المقارنة بين غزوات الرسول والحروب العالمية

47- تدابيره السياسية والدبلوماسية والحربية عليه السلام

48- وأمرهم شورى بينهم

الفصل الثاني

49- هيروشيما و ناغاساكي والقنابل الذرية

50- نظرية الحرب لدى أعداء الإسلام

51- نداء إلى الأمة الإسلامية

الفصل الأول

المقارنة بين غزوات الرسول والحروب العالمية

إن مجموع الغزوات التي ساهم فيها رسول الله ﷺ بنفسه والتى بلغ عددها سبعا وعشرين غزوة، والبعوث والسرايا التي بلغ عددها ستين ولم يكن في كلها قتال.

وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسرايا التي بعثها النبي ﷺ أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم تتجاوز القتلى كلها 1018 قتيلا من الفريقين، وكانت حاقنة لدماء لايعلم عددها إلا الله، عاصمة لنفوس وأعراض لا يحصيها إحصاء، باسطة الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، ولا تخاف أحدا إلا الله[220].

والمرأة من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف[221] بعد ماكانت الجزيرة كلها كفة حابل، وشبكة دقيقة من ترات وثارات، وحروب وغارات، لا تمشي فيها قوافل الحكومات الكبيرة إلا بخفارة ساهرة، وبذرقة[222] ماهرة. وكانت هذه الحروب مؤسسة على الأصلين القرآنيين الحكيمين:"والفتنة أشد من القتل"[223]،"ولكم في القصاص حيوة يا أولي الألباب "[224]موفرة على النوع الإنساني والمجتمع البشري قدرا كبيرا من الوقت والجهد في تغيير الأحوال ودرء الأخطار، وكانت خاضعة لآداب خلقية وتعليمات رحيمة جعلتها أشبه بعملية التأديب، منها بعملية التعذيب .

أما بالنسبة إلى نجاح العملية وسرعتها فقد استمر التوسع بنسبة 274 ميلا مربعا في ظرف عشر سنوات، ولم يخسر المسلمون فيها إلا بنسبة شخص واحد في الشهر، وكان أقصى خسائر العدو في النفوس 150 شخصا، فلما اكتملت السنوات العشر خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الإسلامي[225].

قارن ذلك بقتلى الحربين العالميتين (الأولى 1914-1918 م) والثانية

220.صحيح البخاري ، باب " علامات النبوة "
221.سيرة ابن هشام ، ق2 ، ص581 .
222.البذرقة – بالذال المعجمة والمهملة - : الخفارة (القاموس)
223.القرآن الكريم، سورة البقرة–191
224.القرآن الكريم، سورة البقرة:179
225.مستفاد من كتاب "حديث دفاع " للواء محمد أكبر خان ، ص272

(1939-1945م)، فقد ذكر الكاتب المحقق في دائرة المعارف البريطانية في هذا الموضوع، أن عدد المقتولين في الحرب العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربع مئة ألف نفس(6400000)[226]، وعدد المقتولين في الحرب العالمية الثانية بين خمسة وثلاثين مليونا وستين مليون نفس(بين 35000000 و60000000)[227].

ولم تخدم هاتان الحربان– كما يعلم الجميع– مصلحة إنسانية، ولم يستفد منها العالم البشري في قليل أو كثير.

وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى، والاضطهاد الكنسي إلى اثني عشر مليون نفس(12000000).

تدابيره السياسية والدبلوماسية والحربية عليه السلام

إن الرسول ﷺ أرسل مصعب بن عمير(رض) إلى يثرب كأول سفير في الإسلام السنة الثانية عشرة بعد النبوة ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك وليصلح البيئة لهجرة الرسول ﷺ إلى هناك لتكون يثرب "المدينة المنورة" ومنطلق الدعوة الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها. فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة الأوس والخزرج فيها حديث عهد بواقعة بعاث، والعداوة القديمة بينهما تثير الأحداث الجديدة واليهود يذكون نار الفتنة ويخشون سوء المنقلب، وأصحاب الذين هاجروا إلى المدينة ليس لهم حول ولا قوة الا حول اللاجئ المستظل بجوار القوم الذين لا يحبون أهلهم وعشيرتهم.

فمن تدابيره السياسية وحكمته العملية أنه عليه السلام قام بالمدينة بأمور مهمة وهى كالتالية .....

أولا: آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وآخى بينهم على المواساة، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع، وكانوا يحكمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم، ويؤثرونهم على أنفسهم.

226. مستفاد من كتاب "حديث دفاع " للواء محمد أكبر خان ج19، ص669
227. مستفاد من كتاب "حديث دفاع " للواء محمد أكبر خان ص1013 ، (طبعة 1974 م)

وقد يقول الأنصاري للمهاجر: انظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، ويقول المهاجر: بارك الله لك في أهلك ومالك، ودلني على السوق.

فكان من الأنصاري الإيثار، ومن المهاجر التعفف وعزة النفس.

وكان هذا الإخاء أساسا لإخاء إسلامي عالمي فريد من نوعه، ومقدمة لنهضة أمة ذات دعوة ورسالة، تنطلق لصياغة عالم جديد، قائم على عقائد صحيحة معينة وأهداف صالحة منقذة للعالم من الشقاء والتناحر والانتحار وعلى علاقات جديدة من الإيمان والإخاء المعنوي والعمل المشترك، وكان هذا الإخاء المحدود بين المهاجرين والأنصار طليعة وشريطة لاستئناف حياة جديدة للعالم والإنسانية،لذلك خاطب الله هذه الحفنة البشرية في مدينة صغيرة بقوله:"إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير". [228]

فلم تعرف الدنيا في الإسلام الاجماعتين وحزبين وهما الأنصار والمهاجرون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون.

ولكن مع الأسف الشديد أن المسلمين في يومنا هذا في معظم الدول المسلمة متشتتين متفرقين فيما بينهم، وقد يوجد في بنغلاديش فوق خمسين حزبا على الأقل باسم الإسلام، ماشاء الله تعالى! حيث قال! واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا.

ثانيا: أن الرسول ﷺ عقد مع يهود يثرب معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال. ولم يتجه الى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التي تمت بين المسلمين أنفسهم وإليكم أهم بنود هذه المعاهدة.

بنود المعاهدة :

(1) إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

(2) وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

(3) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

(4) وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

(5) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

228.القرآن الكريم، سورة الأنفال:73

(6) وإن النصر للمظلوم.
(7) وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
(8) وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة.
(9) وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزوجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.
(10) وإنه لاتجار قريش ولا من نصرها.
(11) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب .... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.
(12) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ورئيسها– إن صح هذا التعبير– رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل اخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب الظروف.

ثالثا: أنه ﷺ بنى مسجدا كمركزالدعوة الإسلامية والعالمية وكمركزالشئون الإدارية والقضائية والاجتماعية والسياسية والعسكرية وجعل المسجد مكانا لعبادة الله وحده ومركزا للقيادة.

ومن مواقفه وتدابيره السياسية والعسكرية الرائعة الرشيدة: أنه حصلت فتنة بين رجل من الأنصار وأجير لعمر بن الخطاب، وذلك في غزوة بني المصطلق، فاستنصر الأنصاري بالأنصار، واستنصر الاجير بالمهاجرين وكادت تقع حروب ضروس أراد أن يشعلها ابن ابي بن سلول رأس المنافقين، فقام وقد استغل الموقف وعنده زيد بن أرقم غلام بالغ يقول أوقد فعلوها ؟ قد كاثرونا وناقرونا في بلادنا ما مثلنا معهم الا كما قال الأول" سمن كلبك يأكلك" والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فنقل ابن أرقم مقالة ابن ابي ابن سلول لرسول الله ﷺ فقال عمر: مر به يا رسول الله من يقتله، فقال السيد الحكيم" فكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه" ولكنه اكتفى بأن أمر بالرحيل، فرحل الرسول بالجيش في وقت لم يكن يرحل فيه وسار بهم يومهم ذلك حتى امسى وليلهم حتى اصبح، سار يومهم التالي حتى آذتهم الشمس وأعياهم الجهد ونال منهم التعب ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما.

وكان الغرض النبوي الحكيم من موالاة السير ليلا ونهارا ان لا يشغلوا أنفسهم بما وقع من إثارة الفتنة وزعزعة القلوب وبذلك وقاهم الله شرها نتيجة لهذه السياسة الرائعة الحكيمة، ولما علم عبد الله ابنه وكان من خيار المسلمين بما قال أبوه جاء الى رسول الله ﷺ، وقال انه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فان كنت فاعلا فمرني وانا آتيك برأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها ابر بوالده مني، وإني أخشى ان تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي ان أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار،ترى ماذا يكون جواب الرسول الحكيم والرؤوف الرحيم الخبير بطبائع النفوس؟ يقول في هدوء ورفق " لا يا عبد الله بل تترفق بأبيك ونحسن صحبته ما دام معنا ".

ولقد كان لهذه السياسة اثرها البعيد في درء الشرور، فقد كان ابن أبي المنافق كلما احدث حدثا أقبل عليه قومه يعاتبونه ويعنفونه ويأخذونه بما صنع ويذكرونه بقول رسول الله ﷺ.

ولقد أراد الرسول الكريم في هذا أن يبين لعمر رضي الله عنه عمق سياسته المتئدة المتزنة، فقال" كيف ترى ياعمر أما والله لوقتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته وقلبهم يفيض بالحب والتقدير لرسول الله: والله لقد علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري".

ومن مواقفه ﷺ الحميدة التي تدل على سياسته الرشيدة موقفه يوم الحديبية وموافقته على شروط الصلح التي كان في ظاهرها ضيم وذلة، ولذلك تأثر بعضهم ومنهم سيدنا عمر رضي الله عنه ذلك لان المسلمين لم يكونوا قد تنبهوا للحكمة الجليلة والسياسة الرشيدة التي كان ينظر ﷺ اليها، ولكن ما أن مضت فترة من الزمان حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما انطوت عليه من خير.

ومن أهم تلك الخيرات حفظ المستضعفين في مكة من المسلمين وحقن دمائهم لاختلاطهم بالكفار.

ومن فوائده ايضا إسلام كثير من كفار قريش باختلاطهم بالمسلمين ومجيئهم الى المدينة معقل الإيمان والإسلام وسماعهم من المؤمنين أقواله عليه الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة وحسن سيرته وإعلام نبوته الباهرة، الى غير ذلك مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجا، وعلم المسلمون بعد ذلك ان صدهم عن البيت ورجوعهم كان في الظاهر هضما وفي الباطن عزا لهم وقوة، فأذل الله المشركين من حيث أرادوا العزة وقهروا من حيث ارادوا الغلبة.

" ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ".

ومن تدابيره الحربية الحكيمة الرشيدة كما رأينا في غزواته ومعاملاته لأعدائه ما تدل على عظيم قيادته ومعرفته وخبرته بأساليب الحرب مع أنه ﷺ لم يتعلم الفنون الحربية ولا الهندسة العسكرية في مدرسة ولا في كلية ولا في جامعة وتتجلى تلك الصور في المعارك الحربية التي خاضها وفي الخطط الدفاعية التي رسمها والنظم الحربية التي سنها. لقد انتصر على قلة جيشه في مواقع كثيرة، ودخل مكة مصدر الهجوم ومنبع المؤامرات فاتحا، وقضى على اليهود وتتبعهم حتى قضى على نفوذهم بعدما غدروا كثيرا بمعاهداته ولم يكفوا عن المؤامرات والمكايد، ولم تكن سياسته سياسة اعتداء وقهر وظلم وانما كانت سياسة دفاع ومقاومة وعدل.

ومن مواقفه ﷺ الجليلة التى تدل على براعته العسكرية وقيادته الحربية ورعايته، بنفسه تنظيم الصفوف واستعراض الجنود، فقد كان يوم بدر يعدل صفوف أصحابه بنفسه وفى يده قدح يعدل به القوم، فكان يقول لهذا تقدم ويشير للآخر تـأخر، وحدث انه كان أثناء ترتيبه وتعديله مر بسواد بن غزية وهو خارج عن الصف فطعن في بطنة بالقدح وقال استو يا سواد.

ومن تدابيره الدبلوماسية أنه أرسل نعيم بن مسعود رضـ في غزوة الخندق أو الأحزاب (وقد اعتنق بالإسلام جديدا فلم يعرف أحد من المشركين واليهود حول إسلامهم) إلى اليهود والمشركين وقد اختار من أروع الحيل الحربية والدبلوما سية (والحرب خدعة) فقد نجح في سياسته الدبلوماسية وشتت صفوف الأعداء من المشركين واليهود وتفككت وحدتهم وكانت نتيجة لذلك أنهم فروا إلى مكة منهزمين. والقصة معروفة مشهورة كما اسلفنا في قصة غزوة الأحزاب.

وكذلك أرسل الرسول ﷺ عثمان بن عفان (رضـ) إلى مكة إذ أراد العمرة ليؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم، فاعتذر قائلا: يا رسول الله ﷺ ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعاه، وأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عزوجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان.

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلده، فقالوا: أين تريد ؟ فقال: بعثنى رسول الله ﷺ كذا وكذا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك، وقام إليه

أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به ثم أسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش، فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، لكنه رفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

ومن تدابيره السياسية والدبلوماسية الرائعة الرشيدة أنه ﷺ يلبس أمور الحرب على أعدائه ويعميها عنهم كيلا يتفطنوا لها ويستعدوا للدفع أو يزيدوا في الجمع، وفي ذلك حقن للدماء.

يقول كعب بن مالك لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة أي غزوة تبوك: الحديث، رواه الشيخان.

وفي غزوة بدر قام بنفسه يتحسس أخبار قريش فركب هو وأبو بكر رضي الله عنه حتى وقفا على شيخٍ من العرب فسألاه عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟

فقال ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك فقال الشيخ أذاك بذاك؟ قال نعم، قال الشيخ بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به قريش.

فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ قال رسول الله ﷺ نحن من ماء ثم انصرفا عنه قال الشيخ ما(من ماء)أمن العراق؟

ومن مواقفه ﷺ السياسية الحكيمة أنه لما نقضت قريش صلح الحديبية أرسلت أبا سفيان إلى المدينة يسأل النبي ﷺ تجديد العهد وزيادة المدة فقال: يا محمد إني كنت غائباً في صلح الحديبية فجئت لأجدد العهد فقال ﷺ: فلذلك جئت قال نعم، فقال: هل كان من حدثٍ، فقال أبو سفيان معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل فقال ﷺ فنحن على ذلك.

فانظر إلى هذه السياسة النبوية الرشيدة لم يعاتبه ﷺ على نقض العهد ولم يتوعده بالحرب حتى لا تتهيأ نفوسهم للتفكير في حربٍ ولا يعدون العدة لذلك.

ولذلك فإنهم ما أحسوا إلا والنبي ﷺ قريبٌ من مكة مع جيوشهِ.

ومن مواقفه ﷺ السياسية والدبلوماسية الحكيمة أنه في غزوة بدر أيضاً بعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاصٍ في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له، فوجدوا سقاة لقريش فأتوا باثنين منهم فأخذ ﷺ يسألهما بنفسهِ فقال لهما: أخبراني عن قريشٍ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى قال كم هم ؟ قالا: كثير، قال ما عدتهم ؟ قالا لا ندري قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا يوماً تسعاً ويومِا عشراً فقال ﷺ القوم مابين تسع مائةٍ وألفٍ، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قال: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد وأبو جهل وأمية بن خلف والنضر بن الحارث حتى عد جماعة من كبرائهم، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وفي غزوة حنين وقبل أن تدور المعركة وجه ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل معهم ويقيم حتى يعلم خبرهم ويأتيه به فانطلق فدخل عسكرهم فطاف بهم وجاء بخبرهم ومما سمعه من مالك أنه يقول لاصحابه: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفوا، ثم تكون الحملة منكم واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيفٍ مكسورة الجفون واحملوا حملة رجلٍ واحدٍ، واعلموا أن الغلبة لمن حملَ أولاً، فأقبل عبد الله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر.

وفي يوم الأحزاب أرسل رسول الله ﷺ حذيفة ليكشف خبر الأعداء، وقد تحدث حذيفة بنفسه عن تلك المهمة الخطيرة التي قام بها، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، فقال ﷺ من رجل فيقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا، قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه، قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت من أنت؟ قال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ولقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدرٌ ولا تقوم لنا نارٌ ولا يستمسكُ لنا بناءٌ، فارتحلوا فإني

مرتحلٌ، ثم قام إلى جمله وهو معقولٌ فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاثٍ فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني لقتلته بسهم.

قال حذيفة فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يصلي فأخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

فمن سياسته الحكيمة أنه لما وصل إلى وادي فاطمة أمر أن يوقد كل مسلمٍ ناراً لتراها قريش فترعب من كثرتها فأوقدوا عشرة آلاف نار حتى أن أبا سفيان لما أبصر هذه النار الكثيرة دخل في قلبه الرعب، وقال ما هذه النيران لكنها نيران عرفة، وكان قد جرت عادتهم بإيقاد النار الكثيرة ليلة عرفة.

وكان قد خرج في تلك الليلة أبوسفيان وبديل بن ورقاء يتحسسان الأخبار فأثر فيهما هذا المنظرُ تأثيراً عجيباً وصارا يتحدثان عن ذلك باهتمامٍ وخوفٍ وانزعاج مما كان له الأثر الكبير في استجابة أبي سفيان وطلبه الأمان من رسول الله ﷺ لأهل مكة.

ثم كان ﷺ من عظيم سياسته في هذه الغزوة أيضاً أن أعلن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن فكان في هذا غاية السياسة والحكمة.

ثم تجلت سياسته ﷺ في أمره للعباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ففعل فمرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال يا عباس من هذه؟ قال العباس: فأقول سليم، قال: مالي ولسليم ثم تمر به قبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول مالي ولمزينة حتى نفدت القبائل ما تمر من قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال مالي ولبني فلان حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها قال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال ما لأحدٍ بهؤلاء قِبل ولا طاقة.

ومن ذلكَ ما فعله النبي ﷺ مع بني النضير لما تحصّنوا في حصونهم فحاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإتلافها بالإحراق بالنار والذي أتلفه ﷺ إنما هو البعض وترك الباقي وقد نزل القرآن مصوّباً ما أقدم عليه ﷺ من ذلك قطعاً وإبقاءً وذلك في قوله تعالى{ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله}

وأمرهم شورى بينهم

ومن أهم تدابيرهم السياسية والحربية الحكيمة أنه ﷺ كان يشاور أصحابه ﷺ مع أنه حامل علم الوحى وما هذا الا امتثالا لأمر الله حيث قال الله تعالى: وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله، وقال تعالى: وأمرهم شورى بينهم. وقد استشار حباب بن المنظر يوم بدر الكبرى فوافق ﷺ على ما أشار الحباب بن المنظر وذلك ان النبي ﷺ لما جاء بدرا نزل عند أقرب ماء هناك فقال الحباب: يا رسول الله أريت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه إليه ليس لنا أن نتقدمه أو تتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم- قريش- فننزله وتغور-أي نخرب ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ "لقد أشرت بالرأى"

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقوم فغورت وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه، فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية. وقد استشار الرسول الله ﷺ أصحابه في أسارى بدر فقال أبو بكر يا رسول الله! هؤلاء بنوالعم والعشيرة والإخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله، فيكون لنا عضدا.

فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان –قريب لعمر- فأضرب عنقه و تمكن عليا من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر وأخذ منهم الفداء وأنزل الله تعالى " لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والكتاب الذي سبق من الله هو قوله تعالى:" فإما منا بعد وإما فداء ففي هذه الآية إذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا.

والقصة الثالثة في مشورة الرسول ﷺ وهى قصة مهمة جدا وفيها عبرة ودرس عظيم للأمة المسلمة جمعاء إلى يوم القيامة وهى قصة "صلح الحديبية" التى استشار الرسول ﷺ احدى أمهات المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها كما أسلفنا في قصة صلح الحديبية كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرسول الله ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب قال: قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام منهم رجل

واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم واحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكرلها ما لقى من الناس، وهذا هو موقف حساس دقيق فإن الأصحاب لو لم يعملوا بما أمرهم الرسول ﷺ وعصوا أمره لوقعوا في عذاب من الله (ما قدر الله) ففى هذه الوقفة الرهيبة استشار الرسول ﷺ أم المؤمنين فعمل الرسول حسبما أشارته أم المؤمنين وعمل أصحابه بما أمر الرسول فنجا المسلمون من معصية الرسول ومن عذاب الله. وسياقة الكلام أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله: أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فقام، فخرج، فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما.[229]

وهذه هى فائدة المشاورة وكان من أهم تدابيره السياسية المشاورة مع أصحابه ﷺ رغم أنه حامل الوحي السماوي، وكان إذا يوجد حكم من الله أو وحي من الله فلا يحتاج إلى المشاورة.

وهذه هى القاعدة الأساسية والقانون الإلهي بأن المسلمين يقيم بشئونهم السياسية بالمشاورة:حيث قال الله تعالى:" وأمرهم شورى بينهم. فالشورى لا الدمقراطية، والشورى لا العلمانية، الشورى لا الرأسمالية،الشورى لا الشيوعية، والشورى لا الاشتراكية، الشورى لا الاقطاعية فعليكم أيها الناس في العالم كله الشورى البرلمانية الإسلامية حسب الخلافة على منهاج النبوة وعلى منهاج الخلفاء الأربعة.

229.زاد المعاد 3/ 312

الفصل الثاني
هيروشيما وناغاساكي والقنبلة الذرية

حقيقة، ليست بأسطورة، حقيقة حققتها في العالم أمريكا الظالمة، وما أمريكا؟ وما أدراك ما أمريكا؟ أشد عداوة للإنسانية، وتسكن فيها عقول يهودية صهيونية، وتخترع لها ولإسرائيل قنابل ذرية، (نووية كيماوية هيدروجينية نتروجينية وبكترولوجية) وتلقيها على هيروشيما مدينة يابانية وهى ذاخرة بسكانها، كما تلقي في ناغاساكي و دمرتها تدميرا. وهذه هى القصة القصيرة للقنبلة الذرية الهدامة.

فالحديث عن هيروشيما وناغاساكى حديث ذو شجون والواقعة وقعت في العالم قبل سنين طوال، قبل 72عاما، فلم ينس الناس ولم تنس الدنيا ولم أنس مادمت حيا ولم تصفح يابان ولم تعف الدنيا عن أمريكا وعن مخترعها روبارت وبين هيمار(Robert Openheimer)

وإليكم أيها الأخ القاري قصة إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغاساكى في نظرة...

القنبلة التي ألقيت على هيروشيما كانت اسمها Little boy (الطفل الصغير)، وفي 6 أغسطس صباحا ساعة ثامنة وربع، عام 1945م حاملتها المقاتلة B -29 وقوة القنبلة 15.02 كيلوتن TNT ومجموع ما هلكوا من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتي الف وعشرة آلاف، ومائتي ألف وأربعين الف (ب ت) وأما القنبلة التي ألقيت في ناغاساكي فاسمها كانت Fat Man (رجل فخيم)حاملتها المقاتلة B -29 وتاريخ إلقائها التاسع من أغسطس الساعة الرابعة الا ثلاثة عشرة دقيقة في آخر الليل، عام 1945م ومجموع عدد الهلاك في هذه المدينة بالفور 73884 نسمة وعدد الجرحى 74793 نسمة ومجموع عدد الهلاك 150 ألف نسمة فهذه هى أمريكا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد توصلت أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبز جميع الآلات والمخترعات في التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله في الهول والفظاعة.

"اللهم اهد أمريكا وإسرائيل واهد الناس جميعا في هاتين الدولتين أو مزقهما كل ممزق واحفظ المسلمين جمعاء في أمريكا وفي مشارق الأرض ومغاربها." اللهم آمين

نظرية الحرب لدى أعداء الإسلام

ومما لا شك فيه أن نظرية الحرب لدى أعداء الإسلام هى نظرية خبيثة يكمن فيها الحقد والعداوة والبغضاء بلإنسانية قاطبة ولا يوجد فيهم القيم الخلقية فضلا عن أن يوجد فيهم الأخلاق النبوية، بل وقد أعادوا الجاهلية بصورة جديدة في الدنيا المتحضرة وقد اخترعوا القنابل الذرية والنووية والكيماوية والهيدروجينية والنتروجينية كما اخترعوا سفنا حربية تحمل المقاتلات مختلف الأنواع، التى تخرب العمران وتدمر البنيان وتهلك الحرث والنسل وهذه المخترعات التى أنتجتها العقول البشرية الهدامة من النصارى واليهود والصهيونين ومااخترعوها للوحوش والحيوانات بل إنما اخترعوها لهلاك الإنسان و ديارهم ولإشاعة الفساد في الأرض. فلا شك فيه أنهم أعداء الإنسانية، حقا فإن من أهم قوانينهم في الحرب الثلاثة وهى كما تلى.....

1- اقتلوا –Kill

2- اهدموا- Destroy

3- حرقوا - Burn

وقانونهم في الحرب اقتل قبل أن تقتل وكما ظهر فيهم الخلقية الخبيثة لهؤلاء المخترعين أنهم صنعوا رصاص البندقية كبيرة 7.62-MM حتى لو أحد يطلق على آخر بالبندقية فتصيب ويموت بالفور وأما في هذه الأيام فيصنعون رصاصا صغيرا 5.56-MM حتى تصيب ولا يموت بل ويبقى جريحا ووباله على الآخرين يحملونه إلى المشتشفى ويعالجه ويخدمه الخدم والأقارب إلى أن يصح. وهذه هى قانونهم الحربية وكما يوجد فيهم نزعة الانتقام ولايوجد فيهم المسالمة والصلح والمهادنة إلا قليلا، وأهم أهدافهم الاستيلاء على العالم كله، فيستعمرون دولة إثر أخرى ويحكمون على الناس ويعذبون من يخالف حكمهم وقيادتهم. هداهم الله تعالى أو مزقهم الله كل ممزق وشر ممزق. اللهم آمين.

نداء إلى الأمة الإسلامية

فأناشدكم يا جيل الحاضر والمستقبل للأمة الإسلامية
أناشدكم يا أبطال الأمة الإسلامية
يا شباب الأمة الإسلامية
يا رجال الأمة الإسلامية
يا نساء الأمة الإسلامية
يا دعاة الأمة الإسلامية
يا مجاهدي الأمة الإسلامية
يا طلاب الأمة الإسلامية
أناشدكم يا أفراد الأمة الإسلامية عربا كنتم أوعجمانا

وأحييكم بتحية الإسلام، تحيات عطرة من أعماق قلوبنا وأناديكم نداء إيمانيا أن استيقظوا من سباتكم العميق وتخلقوا بأخلاق الله تعالى، تخلقوا بأخلاق الرسول ﷺ تنصرون بالفتح المبين، كفتح بدر الكبرى، كفتح مكة، كفتح القدس على يدى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكفتح القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبيى (رح) واحملوا سلاح بدر، سلاح أحد، سلاح الأحزاب، سلاح يرموك والقادسية سلاح السلطان صلاح الدين الأيوبيى (رح) وأنا معكم.

واعلموا أن على عواتقكم مسئوليات ضخمة تجاه الأمة الإسلامية جمعاء، فعلى عواتقكم مسئولية عودة القدس الذي فيها المسجد الأقصى المبارك: أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وتحرير فلسطين، على عواتقكم مسئولية تحرير كشمير، ومسئولية إنقاذ المظلومين في مشارق الأرض ومغاربها. ألا تسمعون!

يا أبطال هذه الأمة! القدس يناديكم، فلسطين المحتلة تناديكم، كشميرالجريحة تناديكم وا شباباه! وا إسلاماه! وكأني أراهم يصيحون بالآية القرآنية: "وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا".

أطفال فلسطين يصيحون، والنساء تناشدن، والشيوخ والضعفاء ينادونكم، عيونهم حائرة، وأحلامهم ضائعة، وآمالهم دمرتها الطائرات الغائرة، والدبابات الإسرائيلية الغاشمة.

فتعالوا ! يا أبطال هذه الأمة! إلى الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، فإما الفتح وإما الشهادة، إما النصر وإما اللحاق بالرفيق الأعلى، وانفروا خفافا وثقالا، واعلموا أن الطريق الوحيد لحل قضية فلسطين هو الطريق الذي سلكه السلطان صلاح الدين الأيوبي. كما قال أستاذنا الجليل سماحة الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي (رحمه الله) في محاضرته القيمة ألقاها أمام طلابه بجامعة دار العلوم لندوة العلماء، لكناؤ، الهند.

يا أبطال الأمة الإسلامية

أينقص الدين وأنا حي؟ فهذه هي كلمة الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) التي غيرت مجرى التاريخ، وسدت أبواب الفتن بعد وفاة الرسول ﷺ.أعيدوها كمرة أخرى، وأعيدوا مجد الدين، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم، وأقيموا دين الله في أرضه بثبات الصديق رضي الله عنه، وبخلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصواب رأيه، وبحياء عثمان، وبحكمة علي، وبأمانة أبي عبيدة بن الجراح، وبأشعار حسان بن ثابت وهجائه لأعداء الله، وببسالة خالد بن الوليد رضي الله عنه أجمعين وتعالوا بسيف من سيوف الله مسلولا، وأعيدوا تلك الكلمة الطيبة: أينقص الدين وأنا حي !! أينقص الدين وأنا حي!!!

يا أبطال الأمة الإسلامية:

تخلقوا بأخلاق الرسول ﷺ و تسلحوا بسلاح الإيمان، وسلاح العلم والعرفان، وأخلصوا أعمالكم لوجهه الكريم، وتسلحوا بالصدق والأمانة، كما تسلحوا بسلاح الثقافة الإسلامية القيمة،"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" أى من قوة روحية، ومن قوة مادية، من قوة الأسلحة الجديدة: من القوة النووية والذرية (لا لهدم العمران بل ترهبون بها عدوالله وعدوكم) ومن قوة إعلامية: خطابية، كتابية، ثقافية، أدبية، صحافية، دعوية. واعلموا ان القوة الدعوية من أقوى القوات تجاه إقامة الحكومة الإسلامية في العالم كله، واعلموا أن هذه الأمة هى أمة الدعوة، وأمة الجهاد، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، فقوموا بالأعمال الدعوية، حيث قال الله تعالى:" ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين".[230]،

230 .القرآن الكريم، سورة فصلت- 33

وقال تعالى: " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني".[231]

فادعوا الناس إلى الإسلام الكامل الذي يعطي كل ذي حق حقه، وينير العقول، ويشعل مجامر القلوب، ويهذب الأخلاق، وينظم الحياة، ويضبط الأمم، ويقود الحضارة والمدنية، ويشعل المواهب، وينشئ الرجال، ويربي القادة والعباقرة، لا هو جاف خشب ولا هو رقيق مائع، ولا هو رهبانية وهجر للدنيا، ولا هو مادية ونهامة للحياة، بل إنما هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه (تبارك وتعالى) من الجامعين بين العقل والقلب، بين العبادة والعمل، بين الجهاد والربانية، هذا هو الإسلام، ولكن هناك رجال ونساء من المستشرقين الذين يقولون على الإسلام حقدا عليه، يقولون:" إن الإسلام هو دين قديم لا يستطيع أن يحل مشكلاتنا جميعها في حياتنا كلها، معاذ الله! هم كذبة خدعة في ادعائهم، أولئك هم الكذبة الخدعة،" أولئك هم الكفرة الفجرة"، بل كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. إن يقولون إلا زورا إن يقولون إلا باطلا، إن الإسلام هو الدين الجديد، وهو الشريعة الجديدة، وهو القانون الجديد الذي يحل مشكلاتنا جميعها في حياتنا كلها: الفردية، والجماعية، والاقتصادية، والسياسية، والدولية، وفي كل مجال من مجالات الحياة يحل الإسلام مشكلات البشر أجمعين حلا تاما شاملا كاملا، لا نحتاج إلى أن ننقص منه أو نزيد عليه، هذا هو الإسلام، وهنا يتحقق قول الله تعالى:" إن الدين عند الله الإسلام"، وقال تعالى:" ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"، وقال تعالى:" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا".

وعليكم يا أفراد الأمة الإسلامية من الرجال والنساء أن تطالعوا القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وكتب السيرة النبوية، علما بأن تفاسير القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ هما السيرة النبوية، وحقا ما قال الشيخ محمد الغزالي في خاتمة كتابه الشهير " فقه السيرة ". يقول:

" قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة وهذا خطأ بالغ، إنك لن تفقه السيرة حقا الا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة، وبقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام".

231 .القرآن الكريم، سورة يوسف-108

الخاتمة

52- الخاتمة

53-المراجع

الخاتمة

وأشكرالله تعالى في خاتمة البحث لما وفقني على كتابة كلماتي المتواضعة هذه في السيرة النبوية الطاهرة العطرة وأحب هنا أن يكون مسك الختام تلك الأدعية المأثورة من أدعية الرسول ﷺ التي دعا بها إلى الله تعالى في أهم مواقف حياته عليه السلام، وهما يوم طائف ويوم عرفة. فلم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية فقال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يفقهون، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فظهر في هذه الأدعية جانب من أهم جوانب حياته وهو الرحمة والرأفة والعطف والحنان على أمته صلى الله عليه وسلم كما أنه علم أمته كيف يتضرع إلى الله وكيف يستسلم نفسه إلى الله استسلاما كاملا، فيكون سببا لأن تميل إلى عبده موجات رحمة الله وعفوه وكرمه ومغفرته موجة موجة وكما ظهرت فيها من أروع الكلمات في أدب الدعاء لسيد الرسل عليه السلام.

فمن دعائه ﷺ يوم طائف .....

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي،غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك،أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

ومن دعائه ﷺ بعرفة .....

أللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي لا يخفى عليك شئ من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقرالمعترف بذنبه، أسئلك مسئلة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسمه، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

تمت بفضل الله تعالى وعونه

المراجع

القرآن الكريم

كتب الحديث

الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.

الصحيح لمسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري.

الجامع للترمذي للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.

سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان عيسى الترمذي.

سنن النسائي للقاضي أحمد بن شعيب بن علي النسائي.

سنن ابن ماجه للعلامة أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني.

شمائل الترمذي للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.

مسند أبي داود للحافظ أبي داود الطيالسي.

زاد المعاد للعلامة شمس الدين ابن القيم الجوزية.

فتح الباري للعلامة الحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني.

شرح المواهب اللدنية للعلامة محمد بن عبد الباقي الزاقاني.

السيرة النبوية للعلامة أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن هشام.

نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم

الموسوعة التربية الإسلامية الرياض

الرسالة المحمدية للعلامة السيد سليمان الندوي (تعريب الأستاذ محمد ناظم الندوي)

خاتم النبيين للعلامة محمد أبو زهرة المصري.
عبقرية محمد للأستاذ عباس محمود العقاد.
الرسول القائد للركن المتقاعد محمود شيت الخطاب.
سيرة النبي للعلامة شبلي النعماني (باللغة الأوردية).
حديث دفاع للواء محمد أكبر خان الباكستاني (باللغة الأوردية).
ماذا خسر العالم سماحة الشيخ أبوالحسن الندوي (رحمه الله).
مقالات إسلامية في الفكر والدعوة- سماحة الشيخ أبوالحسن الندوي (رحمه الله).
الرسالة المحمدية سيد سليمان الندوي.
الرحيق المختوم الشيخ الفقيد صفى الرحمن المباركبورى (رح)
محمد الإنسان الكامل السيد محمد بن علوي الحسني.
عبقرية محمد عباس محمود العقّاد.
سيد رجال التاريخ محمد (ص) على الطنطاوي.
مجلة الشهرية "الوعي الإسلامي" الصادرة من الكويت
الجريدة اليومية "نيا ديغنتا" (الأفق الجديد) الصادرة من داكا

The Moralities of war & Peace in the life of Muhammad(S)

A THESIS

SUBMITTED FOR THE AWARD OF THE DEGREE OF M.PHILL

Depertment of Arabic. University of Dhaka

Dhaka.Bangladesh

BY

MUHAMMAD SHAHADAT HUSSAIN

Registretion N0 92/2013-2014

UNDER THE SUPERVITION OF

D.MD.ABDUL KADIR

PROFESSOR

DEPERTMENT OF ARABIC.UNIVERSITY OF DHAKA

Dhaka.Bangladesh

145